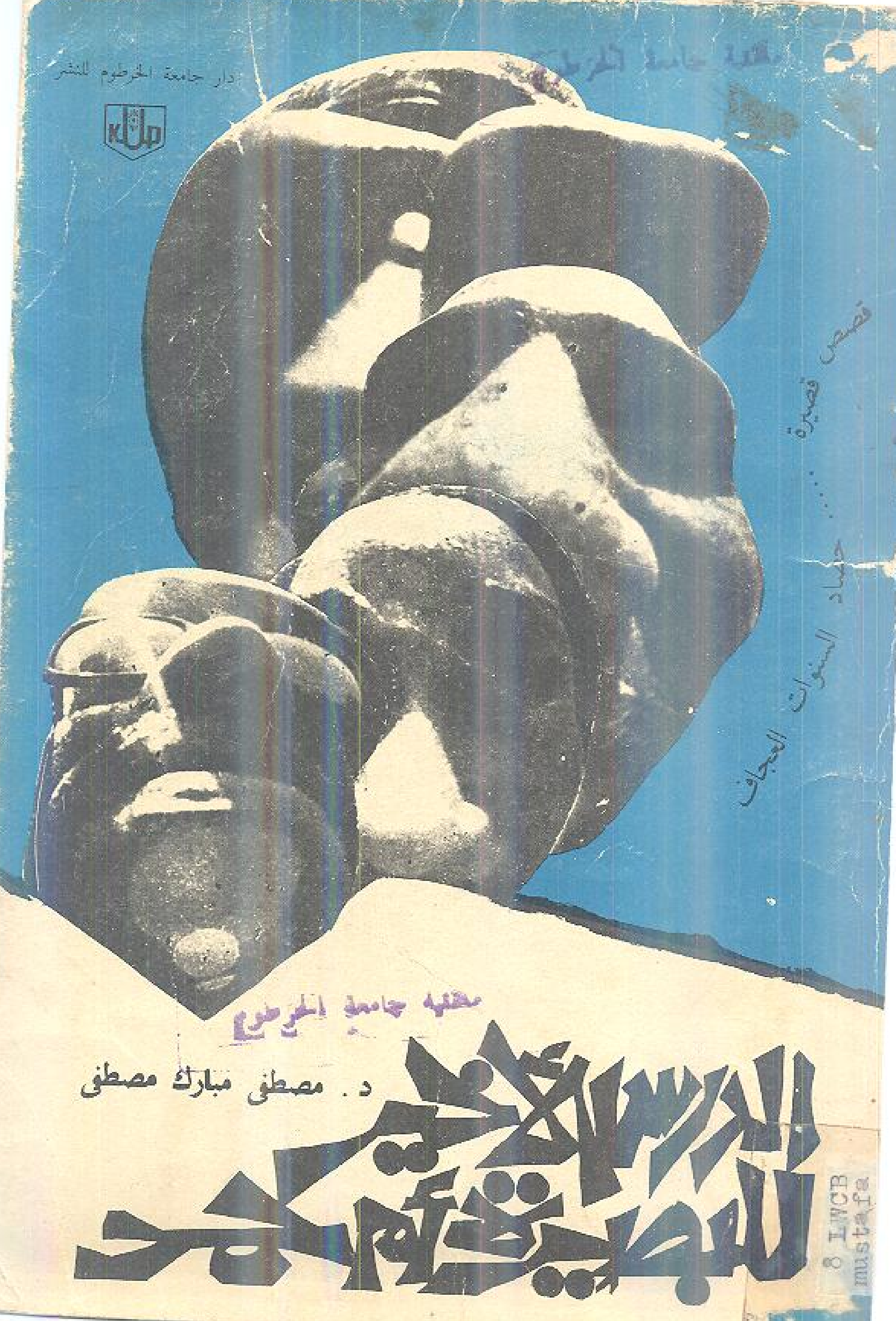

دار جامعة الخرطوم للنشر
قصص قصيرة ... حصاد السنوات العجاف
د. مصطفى مبارك مصطفى
مكتبة جامعة الخرطوم
8 LWCB mustafa

الدرس الاخير للبصيرة أم حمد

[قصص قصيرة : حصاد السنوات العجاف]

د. مصطفى مبارك مصطفى



١٩٨٩



الناشـرون : دار جامعـة الخرطوم للنشـر
ص . ب ٣٢١ الخرطوم « السـودان »

الطبعـة الأولى ١٩٨٩

الطابعون : مطبعة جامعة الخرطـوم
دار جامعة الخرطوم للنشـر

الخرطـــوم وداعـــا

قضى (على) سنوات طويلة من عمره فى الدراسة خارج الوطن ، تطبع بطباع الأوربيين ، أصبح يسلك مثلهم فى كل شيء ، فهو رجل دقيق ، تسير حياته بطريقة منظمة ، يقضى جل وقته فى الاستماع للموسيقى والقراءة ، يهتم كثيرا بعمله ، يفرض على نفسه نظام حمية صارم منـــذ سنوات ، يحسب كميات السكر ، السعرات الحرارية التى يتناولها كل يوم دائما يكثر من الأكل المسلوق .

بعد إنتهاء دراسته وحصوله على الدكتوراه فى الاقتصاد ، عاد للبلاد واستقر فى وظيفة مناسبة بوزارة المالية . فهو ضد الهجرة والعمـــل خارج البلاد، حتى فى المنظمات الدولية التى تدفع مرتبات يسيل لها اللعاب (وبالدولار) .

عندما تقارنه زوجته بزملائه الآخرين العاملين بالخارج يدافع عن نفسه قائلاً (لأكثر من عشرين سنة يتولى دافع الضرائب نفقات دراستى ، ثم لماذا أمضى زهرة شبابى فى خدمة بلاد غير بلادى) ويواصل قائـــلا (عشت سنوات أسير الشقق المقفلة ، هل سأتحمل سنوات أخرى ، ثم من قال لك أن العاملين بالخارج سعداء ؟)

سارت حياته على الإيقاع الهادىء المحبب لديه كما تعود فى إنجلترا . يذهب دائما ليتسوق فى سوق العمارات الحافل بالبقالات الحديثة ، حيث يجد ما يريده من أطعمة ، ومعلبات ترضى ذوقه وخياراته التى تعود عليها إبان تواجده بالخارج .

أحد أيام الصيف المعتدلة . يتوقع ضيفاً على العشاء . صديق أجنبى يزور السودان . زميل دراسة فى مدرسة لندن للعلوم السياسية . كعادته ، ذهب قبل غروب الشمس لسوق العمارات . منزله لايبعد كثيرا ، لبس

جلابيته ، رمى عمامته على كتفه كيفما اتفق . قطع المسافة راجلا فى خطوات وئيدة ، — يفكر فى أحوال الدنيا — إشترى بعض الخضـــار . عرج على ملحمة قريبة تتوسط السوق . دخل يحمل فى يده كيساً مـــن البلاستيك . متخم بالخضار ، تتدلى منه أوراق البصل الأخضر بكثافة .

كان القصاب مربوع القامة ، بدين ، قصير الرقبة ، يجلس وحيدا يدخن فى هدؤ . مسترخيا على مقعده . تفحصه بلمحة خاطفة . رد على تحيته بتثاقل . رأسه عارية . يلبس جلابية . يحمل فى يده كيساً من الخضار . ماذا يريد هنا .

ضايقه تجاهل الجزار له، وهو الذى يُقابل بالرعاية والإهتمام أينما ذهب . يفاخرون بنبوغه وذكائه كمنظر اقتصادى من الطراز الاول . تجاهل الإستقبال غير الودى . فهو بطبعه هادىء غير مشاكس . قال لنفسه (رجل جاهل . . . لكن مالى وماله ، آخذ الدايرو وأمشى . أكيد هو ما عارف أنا منو) سأل :

— عندك لحمة ؟

رد عليه القصاب ببرود دون أن يغادر مقعده .

— ما عندنا .

لمح قطعة لحم مكتنزة بطول اليد معلقة على خطاف طاولة البيع أشار لها

— دى شنو ؟

قال : دى مالحمة

سأل : طيب شنو ؟

آثر القصاب أن يختصر الحوار ، تعمد أن يوجه له إهانة جديدة ، يبدو أن هذا رجل ملحاح .

— ياأخى لحمة زى دى أنتو مابتعرفوا ليها ، ولابتاكلوها ، وحتى سعرها مازى سعر لحمة السوق . دى ,,فلتو،، دى لحمة خواجات .

إغتاظ ، لن يتراجع أمام الإستفزاز . قال :
- أوزنها لى . انت ما بتعرف الخواجات اكثر منى .

المزيد من التحدى . قام على مهل من مقعده سار حتى باب المحل . لا ، بل تدحرج وعام فى الهواء بصدره العريض . قميصه البلدى الممزق الملطخ بالدماء وقطع اللحم الصغيرة . أطفأ عقب السيجارة على الأرض . نظف فمه بلسانه بصوت مسموع . بصق بعيدا ، أخرج علبة (التنباك) كور (سفة) كبيرة فى باطن كفه ، وضعها تحت لسانه . خاطبه وهو يتقدم نحوه فى تؤده . شمر عن ساعديه . قطعة التنباك الموضوعة تحت لسانه جعلت مخارج الحروف تتعثر ، ناظراً إليه بعينين ضيقتين .
- يا آخى ، يا ابن العم . . . أ . . . .

قال مخاطبا القصاب .

قبل أن يكمل جملته . إنتهره القصاب بصورة فجة . رزاز التنباك يتطاير من فمه الغاضب . مشيرا بيده خارج المحل :
- إتفضل أطلع بره يا آخى ، أنا لا ود عمك ولا حاجة ، مالك عاوز تخلينا نرتكب لينا جريمة آخر النهار ، قلنا اللحمة ما للبيع ، ماللبيع ، وهو وشك ده ذاته وش لحمة ، خليك من الفلتو .

الوقت يخونه . تلفت حوله . لا أحد يمكن أن يستنجد به ، هرب سريعاً فى فزع . ليس هنالك أى مجال للمقارنة بين جسده النحيل بنظارته الطبية والقصاب السمين مثل الثور . ليهرب قبل أن يسقط على الأرض مضرجا بدمائه بسكين قصاب هائج فى سوق العمارات .

بعد كل هذه السنوات من الدراسة . وفى عمر العطاء ، يصبح ماضى حياته مجرد خبر صغير فى صفحة الجرائم بالصحف اليومية ، ومأتم متعجل ضجر ، كعادة الناس هذه الايام .

لم يحك لأحد ، حتى زوجته ، وليست هذه نكتة أو حكاية تروى لطرافتها . شعر لعدة أيام بإهانة بالغة ، فهو الذى كان يأكل أفخم

اللحوم فى أوربا . حيث القصاب المهذب يلبس مثل الأطباء (أبيض فى أبيض) . تباع اللحوم نظيفة وفى أكياس جميلة . وتكاد تأكلها نيئة . كل قطعة لها اسم ، وسعر خاص ، يضن عليه قصاب فى سوق العمارات بقطعة لحم (فلتو) . فى بلد يحتل المرتبة الثالثة بين دول العالم من ناحية الثروة الحيوانية .

بمرور الزمن تناسى ما حدث ، فعقله المنظم المرتب لامكان دائم فيه لمثل هذه الأحداث . فى بعض الأحيان عند ما ينام متكدراً — وهذا يحدث كثيرا هذه الايام — يحلم بطيف القصاب ، يتقدم نحوه شاهراً مديته ، يعوم فى الهواء بصدره العريض ، وقميصه الملطخ ببقع الدماء وقطع اللحم الصغيرة ، ويعلقه من رجليه على خطاف طاولة اللحم ويعمل فيه تقطيعاً .

بعد شهور ، الشتاء يدق بيده الباردة على نوافذ المدينة ، إتصلت به زوجته من المنزل ، قالت إن والده ووالدته وصلا من كوستى بقطار الباخرة ، ترجته أن يحضر معه بعض الفواكه ، والمزيد من اللحم . إنتهى إجتماعه فى وزارة المالية والإقتصاد بعد منتصف النهار . لم يرجع إلى المكتب . إتجه مباشرة إلى سوق العمارات . أوقف عربته البيجو أمام أول محل جزارة صادفه . دخل المحل يرفل فى بذلته النظيفة ولانه دقيق الملامح متناسق الجسد ، فإن اللباس الأفرنجى الكامل يعطيه وسامة ، ومظهراً يوحى بالهيبة والإحترام ، يضاعفه مسحة هدوء صوفى تظلل وجهه .

حياه القصاب من خلف طاولة البيع هاشاً باشاً . كانت هنالك إمرأة إرترية، خادم قبيح مثل القرد وسيدة أجنبية مسنة بها مسحة من جمال غاب. تجاهلهم القصاب تماما ووقف ينظر ما يأمر به ورسم على وجهه إبتسامة ترقب واستعداد كبيرة .

— قول يا أستاذ آمر ، المحل كله تحت طلبك ، عاوز ايه ، ما تشوف المعروض ده ، عندى فى الثلاجة لحمة كويسة . وغمز له بعينه إشارة الانتظار . أشار على الخادم القبيح فى ضجر وتأفف .

ــ زح . . . زح من الترابيزة ، خلى الأستاذ يقرب شوية .

نبرات الصوت القوية المتسارعة ، التى يعطل إيقاعها الطبيعى (سفة) تستقر دائما تحت اللسان ، جعلت شريط الذاكرة يدور مسرعا للماضى القريب . أى مصادفة غريبة قادته من جديد لمحل الرجل الذى كان يمكن أن يقتله بسبب قطعة لحم . لكن الأمر يختلف الآن ، لاوقت لديه ليذهب ويبحث عن اللحم فى محل آخر . إنه رجل عاقل ، يزن الأمور بميزانها الصحيح ما جدوى الإنتقام بعدم الشراء منه .

قبل أن يطلب ما يريد ، فتح الجزار الثلاجة ، أخرج قطعة لحم كبيرة مكتنزة بحجم الساعد . عرضها عليه .

ــ أخذ قطعة (الفلتو) دى والله أنا دائما بحتفظ بيها للناس الزيكم ، على بالطلاق عجل ما يأخد فى النار أكثر من خمس دقائق ، بس سعرها غالى شوية . قال دون أن يشعر .

ــ أوزنها لى

وطلب منه أن يزن كمية لحم أخرى (للطبيخ) كما قالت زوجته . وزن له قطعة (دوش) ممتازة ، وضع بجانبها قطعة لحم حمراء كبيرة من الفخذ ، وهو أمر لا يفعله القصابون عادة إلا فى الحالات الخاصة . لم يجادل فى الثمن ، خرج ، قاد عربته حتى منزله ، فى شرود تام .

مساء ذلك اليوم رأته زوجته يفتش فى أدراج غرفة النوم قالت :

ــ داير شنو ؟

قال :

ــ جواز سفرى .

وساد بينهما صمت طويل قطعه صياح ديك أخرق فقد عامل الإحساس بالزمن .

الزنجى يمرح فى الحديقة

أخيرا . بعد طول إنتظار . وصلت رسالة من الوطن البعيد ... البعيد فضها بسرعة . إستلقى بطريقة آلية على سريره غير المرتب . للهفته إستلقى دون أن يخلع معطفه الشتائى الثقيل . أخذ يلتهم السطور إلتهاماً . والدته تكتب له باستمرار ، امرأة أمية . تملى الرسالة على أخيه الصغير ، لا يزال فى المدرسة الإبتدائية . تتعثر لغته الطفولية . إلا أنه ينقل على الورق كل إنفعالاتها وتعابير لهجتها النسائية الدارجة التى تمليها عليه بكل معانيها الموحية. تطل شخصيتها بين الحروف .رآها تضحك بمرح .تتماوج شلوخها العريضة على خدودها الوسيمة . تحكى له عن كل شىء يحدث فى غيابه . خالته سليطة اللسان ، سقطت على الأرض إنكسرت رجلها يجب ان يكتب لها مواسيا .على جارهم سىء الحظ ،توفى بعد كفاح طويل مع المرض . ابنة خاله التى تركها طفلة ، كتبوا كتابها على أحد الذين يعملون فى الخليج كبير السن ،وقبيح ،لكنه اغراهم بالمال .فى بيت الفرح،رأى تلك التى يهفو لها قلبه ، كانت جميلة كالبدر وسط الفتيات .والده كالعادة فى سفره المتواصل .

قالت انها غاضبة عليه ، فقد حلمت انه يبات على الطوى ، يجب على الأقل ان يشرب كوباً من اللبن .إنها لا تريد أى شىء فى هذه الدنيا غير أن تراه وقد أحرز الشهادة العالية ،وهى راضية عنه لأن رضاء الوالدين يفتح أبواب الجنة للابناء . فقط تريد ان تعرف متى ينهى دراسته ويعود . والده دب الوهن فى جسده . تحيط به الأزمات ضحكت حتى امتلأت عيناها بالدموع .عندما يضمها مجلس نساء وتأتى سيرة الأبناء والتربية ، تقول بفخر إن لها ولدين يدرسان (فى بلاد بره) ولكنها لاتعرف كيف تنطق اسم المدينة التى يدرس بها ، لدرجة أن إحدى

النساء قالت لها إن بلاد بره هى بلاد الإنكليز نعرفها من زمن أجدادنا ، ونعرف بلاداً غيرها . ليكتب فى رسالته القادمة بوضوح عنوان البلاد التى يدرس بها ، لترد كيد النساء . قالت إنها تسافر بخيالها كل ليلة عبر البحار والأنهار ، الغابات والمدن ، إلى حيث يدرس هو وأخوه . وإنها دائماً ترسل تحاياها لهم مع أسراب الطيور المهاجرة وضوء الشمس والقمر .

قرأ الخطاب الطويل أكثر من مرة . شعر أن غرفته الصغيرة فى مسكن الطلاب الأجانب بمدينة (. . . .) بشرق أوربا تضيق به ، عرق ، تسارعت دقات قلبه ، إمتلأ انفعالاً وشاعرية . دائماً يعيش الرسائل التى تصل من والدته . لايقرأ خطاباتها فقط ، بل يذوب فيها . وينتقل ، بل يطير مع كلماتها . إلى الوطن البعيد . البعيد . البعيد . . . .

قرر أن يخرج ويتمشى فى الحديقة الواسعة التى تتوسط الحى الذى يقع فيه مسكن الطلاب الأجانب وكان يريد أن يختلى بنفسه فى مكان رحب واسع . ولأطول وقت ممكن . يقرأ خطابه على مهل . كلمة . كلمة .

وضع على رأسه كيفما اتفق غطاء الرأس الكثيف . أحكم عليه معطفه الشتائى الثقيل . أدخل يديه الباردتين فى جيوب معطفه . قفز درجات السلم قفزا . عندما مر بمدخل المبنى بادره الحارس العجوز الذى يتسلم البريد ويوزعه على الطلاب سائلاً .

ـ إيه ماجد ، ما هى أخبار الوطن ؟

رد عليه دون أن يتوقف .

ـ شكرا لك ياعم إيفان . الأخبار جيدة وخاطب نفسه (لاجيدة) ولاحاجه.

هرول حتى الحديقة . نهار شتاء منتصف يناير . تتكسر أشعة شمسه على أكوام الثلج الأبيض الذى يغطى كل شىء . ملايين اللآلى البلورية الصغيرة ، بألوان قوس قزح تتكسر تحت قدميه ، الأشجار السوداء العارية من الأوراق تحاول أن تتناسى محنتها ، تهتز مرتجفة مع ريح سريعة باردة .

الزرازير الجائعة تنبش الثلج دون كلل . إلا أن الحديقة كان بها روادها الدائمون . يجلس الشيوخ على الكنبات الخشبية باهتة اللون ، يعضون على غلايينهم المطفأة . يحكون عن مباريات الشطرنج ، قدراتهم الجنسية الوهمية فى الزمن الغابر ، يلوكون ذكريات الحرب العالمية الثانية ، وكيف أن الزمن إنتهى بهم إلى هنا يراقبون الأطفال الصغار ، أحفادهم الذين كانوا يلعبون بكرات الثلج ، يتزحلقون على مقاعد ذات سكاكين طويلة ، تنزلق على سطح الجليد .

بعيداً يجلس عاشقان . الفتاة تلتصق بالفتى . ينام رأسها على كتفه . صامتان . هو الأجنبى الوحيد وسطهم . بقامته النحيلة وتقاطيعه الأفريقية ، تلحظه العين من بعيد . إختار كنبة خالية تتوسط الحديقة . تطل على حافة بركة صغيرة متجمدة . أزاح الثلج المتراكم بيده . جلس ، تنفس بعمق . ملأ رئتيه أكثر من مرة بالهواء البارد . غرق فى بحر عواطفه المتلاطـم . أخرج الرسالة من جيبه . بدأ يقرأ بعض مقاطعها . بحث بعينيه عن الفقرة التى تقول فيها إنها رأت تلك التى يهفو إليها قلبه .
أصابعه تكاد تتجمد من البرد . غطس فى معطفه حتى تقوست كتفاه . بدأ مثل نسر هرم . مر أمامه شابان قال أحدهما معلقاً ، بصوت مسموع .
ـ لعله يقرأ رسالة غرامية ، أصبحوا يعرفون الحب .

لم يعرهما التفاتاً . طوى الرسالة بسرعة أدخلها فى جيبه . ضغط كفيه ببعضهما . نفخ عليهما زفيره الحار الدافىء . كل شيء هنالك يتغير ، وهو هنا وحيد يطارد الكتب .

فجأة تناثر الثلج حوله . طار غطاء رأسه بعيدا . قام ينفض الثلج من كتفيه . إلتقط غطاء رأسه من الأرض . إلتفت بشراسة . كوكبة مـن الأطفال تبتعد ، أرجلهم تسابق الريح . قذفوه بكرة من الثلج . تعود هنا أن يعتقل فى صدره مشاعر الغضب .

جلس أحد ما بجانبه ، كانت فتاة تبدو عليها الجرأة . يغطي وجهها النمش . نصف شقراء . قالت من خلال عينيها الصغيرتين الزرقاوين .

– هاى جون كيف حالك ؟

– إسمى ليس جون .

– لا يهم ، أظن أننا تقابلنا من قبل .

– لالم نتقابل ، لانى لا أدرس هنا ، حضرت من مدينة أخرى .

– حسنا هل يرفض أحد صحبة فتاة جميلة مثلى .

– أرجوك أتركينى فى حالى . أنت لست جميلة ، بل أنت قبيحة جداً . أعيتها الحيل ، كشفت عن نواياها ، قالت بذلة وتوسل :

– إيه جون ، هل لديك أى شئ من أجلى ، أنت فرصتى الوحيدة ، من الصعب أن أقابل أياً منكم ، عيد ميلادى يقترب ، أريد أى شئ من الغرب شوكولاته ، سجائر ، ويسكى ، أكاد أموت سعياً وراء بنطلون من الجينز الابيض . سأعثر لك على صديقة جميلة إن كنت لاتريدنى ، هذا هو رقم تلفونى . إيه جون هل تسمعنى .

قطعت حديثها ، وقفت ، أسرعت الخطى مبتعدة . إستغرب تصرفها . إلتفت إلى الجهة المقابلة . رأى رجلى بوليس يقتربان . توقفا قريبا منه . تقاطيعهما صارمة باردة كأنهما يحرسان سجناً كبيراً . نظر له أحدهما فى غضب . إبتعدا فى هدوء يلتفتان . ينظران اليه بعد أن يسيرا عدة أمتار . تكدر بعض الشيء أخذ يتجول فى ممرات الحديقة . يفكر فى خطابه . حاول إشعال سيجارة فى الجو البارد . فشل ، رماها ، داس عليها حانقا ، تابع الممر المتسلل بين الأشجار الميتة ، متجها صوب مدخل الحديقة . من كنبة قريبة ، سمع أحد الشيوخ يناديه مداعباً .

– إيه تشارلى . أفريقيا ليس فيها جليد أليس كذلك ؟

أود أن أركب على ظهر أسد يوما ما .

واصل سيره . الممر الحصوى المغطى بالجليد . يتلوى كثعبان عملاق متجها لمدخل الحديقة . تقابل مع امرأتين بدينتين . إحداهن تشبه الخنزير البرى. مال جانبا ليخلى لهما الطريق . إبتعدتا قليلا ، سمع إحداهما تقول :

— أرأيت الزنجى يمرح فى الحديقة !

واصل سيره . وجد نفسه فى الشارع ، ضجيج العربات . فتى مهووس يحمل جهاز راديو تنبعث منه أغنية وطنية حماسية ، عربات الترام القديمة تنبح ، وهى تتعثر ، تتمايل على القضبان الحديدية التى يغطيها الوحل الجليدى بقامته الافريقية الواضحة للعيان . . فارع الطول ، ذاب فى كتل البشر المهرولة . كأنما يسوقها أمامه شيطان مجنون . اتجه نحو مركز المدينة القريب حيث تكثر بارات الجعة ، وحانات الخمر الرخيصة .

حملة الرايقة التفتيشية

منذ الصباح الباكر ظلت (الرايقة) تدخن بشراهة ، السيجارة تلو السيجارة .تحدق فى سقف الغرفة بعيون ساهمة . عندما فتحت العلبة الثالثة إقتربت منها (كلتومة) سألتها بقلق .إغرورقت عيناها بالدموع — الرايقة ،هوى يالرايقة ، ده شنو يأختى؟ إنتى بقيتى زى القطر ،أوف أوف ،أوف، ماتكلمينى .إنتى مالك يالرايقة ،زعلانه من شنو؟

ردت الرايقة بأن أخذت سيجارة جديدة .بدأت تدخنها بشراهة متناهية . تعتصرها بين أصابعها .كادت السيجارة ان تتحطم وهى تحدق فى سقف الغرفة . إحتارت كلتومة ماذا تفعل ، فقد بخرتها من قبل ببخور (التيمان) .أخذتها لحاج أبكر . كتب لها (حجاباً) ضد العمل . أول أمس إصطحبتها لزار قريب .كل ذلك لم ينفع فى إخراج الرايقة من صمتها المهيب .أسبوع وهن على هذه الحال .تناولت الرايقة سيجارة جديدة . اليوم الخميس ،تدخن بشراهة متناهية منذ الصباح الباكر هرولت كلتومة نحو الغرفة التى تسكنها (القاش) يجلس معها صديقها يقطعان (أم فتفت) .

جمعهن الثلاثة حال الدنيا . منذ سنوات يعشن كالأخوات تماماً . طفن الكثير من المدن .القاش تركت قريتها بعد ان حملت سفاحاً من عبدالقادر الميكانيكى الشيق . الرايقة الجميلة (الصفراء) زوجوها قسراً لمعلم المدرسة الهرم. كانت تلميذته فى المدرسة المختلطة فى القرية . هربت وهى عقلهن المفكر لما نالته من تعليم بسيط . كلتومة كانت زوجة مصون . إنتقل زوجها ليعمل فى المدينة خفيرا يسهر الليالى . يتركها وحدها مع طفلها الصغير .فى منزل ناء منعزل . بجمالها الريفى (تشبه عيناها عينى عجل حديث الولادة) أغواها بعضهم . أفسدوها، تركت منزل الزوجية، لهن أكثر من عامين فى هذه المدينة . إشتهرن بالجمال ، الظرف ، النظافة ،

السير . ظنت كلتومة أنها تملأ رئتيها من الهواء المعطر برائحة السمك . لحزنها عليها . ولإعتقادها فى (أسياد الزار) ، قالت لها فى توسل .
: الجماعة عاوزين سمك ولا شنو يالرايقة ؟
إلا أنها فاجأتها بأن خلعت ثوبها وكلتومة تنظر ليها فى قلق . صاحت
: الرايقة . . . ده شنو ، سجم أمي . ده شنو يالرايقة . . ؟؟؟؟؟
حاولت أن تمنعها . إلا أن الرايقة دفعتها بيدها بعيداً حتى سقطت على الأرض . عندما بدأت الرايقة تخلع ملابسها قطعة بعد قطعة ، جرت كلتومة هاربة متجهة إلى خارج السوق . تولول .
وقفت الرايقة فى منتصف السوق عارية تماما كما ولدتها أمها . تنعكس الشمس على بشرتها البيضاء بقوة . تناولت ثوبها مزقت منه قطعة متوسطة الطول ربطتها حول وسطها مثل حزام عريض . بانت بعض (الفصود) على صدرها المتماسك الذى لم يرضع طفلا بعد .
رغم شقاء السنين . كان جسدها لايزال بضاً متماسكاً ، متناسـقا لدرجة الإغراء . يدهش الذين سمعوا بها وتمنوها فى خيالهم .
إنحنت للارض . ملأت راحتيها تراباً أهالته على رأسها . زغردت زغرودة طويلة قوية ، رددت صداها (فرندات) المتاجر . شدت قامتها أكثر . مشت بخطوات فخورة (قدلت) كما تقول حبوباتنا عندما يصفن من يمشى بخيلاء . إتجهت نحو دكان الخير تاجر الجملة الشهير . خاطبته بصوت مسموع بلهجتها الريفية .
: الخير أخوى . إزيك ، مالك طولت مننا كدى ، ما قلت دلكتنا أخير من دلكة مرتك . . آ . . . قلت شنو ياالخير أخوى
حاول أن يتجاهلها . لكن عندما تقدمت نحوه فاتحة ذراعيها أنهـا تريد أن تحتضنه ، ترك مكانه على المائدة العريضة فى مدخل المتجر ، هرول نحو عربته ، أدار محركها ، إنطلق هارباً .
إتجهت يتبعها الصبية الفضوليون وصعاليك المدينة نحو دكان عابدين تاجر الخردوات والملابس النسائية الجاهزة

: عابدين . إزيك . دحين أنت ما ناسي ساعتك عندنا ، مالك طولت ماجيت . أهي دى أنا لابساها .

مدت له بساعة خلعتها من معصمها . مشت نحوه فاتحة ذراعيها . أسرع داخل متجره ، أقفله عليه . عندما بلغ بها الحماس أشده . تعرت تماما خلعت قطعة الثوب التى كانت تلفها حول وسطها . سارت تنتقل من متجر إلى متجر . يتبعها الصبية الفضوليون . صعاليك المدينة . أشاحت بعض النساء بوجوههن خجلا عندما مرت بقربهن . كانت تزغرد بتواصل ، زغاريد تردد صداها فرندات المتاجر . وهى تواصل حملتها التفتيشية . أقفل الكثير من التجار متاجرهم ، غادروا السوق . بل أن عم أبوزيد الورع ، تاجر ,, العيش ,, هرول مبتعداً حتى سقطت عمامته ، وذلك عندما سمع بجولة الرايقة ، رغم أن ,, سوق العيش ,, يبعد كثيراً عن مكان تواجدها . كان قرص الشمس يرتفع بتؤده لينبض فى قلب السماء . ليرقب من الأعالى هذا اليوم المدهش .

مكتب البريد والبرق ، فرع البنك الإستثمارى ، إدارة الزراعة المجلس البلدى تقع قرب السوق . عندما تناهى لموظفيها مرور الرايقة التفتيشى وحملتها تركوا مكاتبهم ، دون أن يسألوا عن إسمها . فقط سمعوا أن هنالك ، (واحدة جنت) . هنالك فى أعالى التلال الرملية حيث يقع (المركز) والمحكمة والسجن ، ترك البعض مكاتبهم وهربوا . محمد الصراف وهو أب لخمسة أطفال ، ترك باب الخزينة مفتوحاً ، أسرع نحو منزله بحجة أنه شعر بوعكة ، ضابط المجلس البلدى . أصيب بإسهال . إنتقل الخبر كالنار فى الهشيم ، ما بين حال الرايقة وهى لابسة ملابسها وحالها وهى عارية ، لم تمر أكثر من نصف ساعة فى عمر الزمن ، لكنها كانت كافية لان يصبح وسط السوق شبه مقفر ، مع أن الوقت كان صباحاً حلواً ، فهذه طلائع خريف مبكر تتقدم السحب الحبلى بالمطر تتهادى وهى تهز عجز الهشة . تحوم فى الجو طلائع طير السمبر . رائحة الدعاش .

إحدى النساء المتواجدات بالسوق .فى الخمسينات من عمرها .
طويلة قوية البنية ،تمالكت نفسها ،ذهبت لأحدى أصحاب المتاجر ،من
الذين صمدوا أمام حملة الرايقة ،والتى كان صدى زغاريدها لايزال
يتردد فى فرندات المتاجر ، قالت له .

:قوم عليك الله أقطع لى كم متر قماش كدى !!!

هرولت ،لحقت بالرايقة أمام أحد المتاجر،نهرتها بصوت عال
آمر ،جرتها من يدها .

:أقيفى هنا يامسوخة ياقليلة الحيا ، أقيفى تقيفى على اربعة ، جن جنس
دا انا عمرى ماشفته .

كانت الرايقة قد أنهكت بالفعل . إستسلمت للمرأة القوية .لفتها
بقطعة القماش .قادتها حيث أجلستها على كرسى فى مقهى هرب منه
صاحبه من بابه الخلفى .طردت المتجمهرين حولها . أرسلت طفلا ليحضر
عربة تاكسى .

كانت الرايقة تبكى وتشهق بصوت عال حتى يهتز الكرسى الخشبى
و(تولول) أحيانا .إلتصق التراب الذى أهالته على رأسها (بمشاطها) .
وجهها فى راحتيها ،وأحيانا تضعهما على رأسها فتبين عيناها
المحمرتان من أثر التدخين والشمس والبكاء .حث رجلا بوليس الخطى
نحوها ،تحسس أحدهما مسدسة بحركة لا إرادية . تخللت نواحها وشهيقها
بصعوبة رددت الرايقة بضع كلمات ،
قالت وهى تتمخط بصوت مسموع .

:أنا ما مجنونة ، والله أنا ما مجنونة ، وحات سيدى الحسن أنا ماجنونة
بس إنتى ما عارفه حاجة ساكت ،ياأمى .بس انتى ما عارفه حاجة ساكت
وحات الله انا ماجنونة .
وواصلت البكاء

الهروب الكبير

تكن بت أحمـــد كراهية لا حـــدود لها لزوج بنتها . زوجها له أعمامها لأن والدها توفى . تقول على الملأ انه عبيط وأن شخصاً يملك مثل هذا الأنف الكبير والصوت الغليظ ،من الظلم أن يكون زوجاً لفتاة تشبه البدر المكتمل . يوم زفافها قالت للنساء بامتعاض وتأفف : والله ما بكضب كنت دايرة لى بتى راجلا سمح .

صباح ذلك اليوم غازل سماء مدينة كوستى برق طفولى متسرع . تراجع الفجر رويداً رويداً أمام جيوش السحب الداكنة . إمتلأت الطرقات بالرجال المســرعين . الريح الباردة التى تسبق الامطار عادة ، أجبرت أفرع الأشجار على ممارسة طقوس رقص الشجر الوحشى بعنف زائد فزعت كل الطيور . طارت من أعشاشها وجلة . تباطأ الرجــال الكسالى فى إرتداء ملابس العمل .

وهى ترتشف قهوة الصباح قالت لإبنتها :

– مالك ما دايره تودى القهوة للشيخ ؟

– مرق بدرى خلاص . لبس جلابيته والناس نايمين وطلع . ما قال ماشى وين . ماله مرق فى المطرة الشايلة دى ؟

– ماقال يمكن ماشى ربك يشوف زراعته .

حشت فمها بكمية كبيرة من التنباك. أطرقت برأسها للارض وهى تخط خطوطاً طويلة بأصبعها السبابة على رمال الغرفة . حادث نفسها بصوت عال بعد أن تنهدت .

تلحقونى وتنجدونى يا الركابية . بركة حاج عربى ومكاوى مايجى راجع تانى .

وقفت ، أصلحت من وضع ثوبها على كتفها . قالت وهى خارجة :

ــ طيب ما هو ما جايب خبر بيته . اللمشى أنا أجيب الخضار من السوق.

إفتقد الجيران عبد الواحد ساعة الغداء . السماء لم تمطر . الطريق غير المعبد بين كوستى وربك سالك . وهو يكره أن يقضى ساعة القيلولة خارج منزله . فى المساء رجع بعض سكان حى المرابيع من ربك . قالوا أنهم لم يشاهدوه . لعب الفار فى عب زوجته . أسرعت لمنزل خالها الذى يسكن قريبا منها والدموع فى عينيها . فهو زوجها رغم كراهية أمها له . كل متاعه موجود ، لم يقل أى وصايا . لم يترك مصاريف المنزل . لايسافر فى هذا الوقت من السنة ! انتظروه حتى صباح اليوم الثانى . بدأوا حملة البحث عنه فى النهر ــ يهوى السباحة ــ انتظروا جثته لثلاثة أيام . كان داعراً قبل أن يتزوج .

صديقاته أنكرن فى الحلة الجديدة أنه زارهن . إستغربن زواجه ثم إختفاءه . أقربهن له قالت :

ــ والله حتى إحنا زعلانين منه يعنى بعد ما يعرس سلام الله ما يجى يدينا ليه . الرجال كلهم شبه بعض .

تركوا أوصافه فى كل أقسام البوليس . بحثوا عنه فى كل القرى القريبة ، حتى مضارب الأعراب الرحل وصلوها لكن . . لا أمل . زوجته ظلت تبكى بصورة متصلة حتى جفت الدموع فى مآقيها . أصبحت تنوح وتئن مثل كلب جريح . أعمامه . . وهم جلابة أثروا بالإتجار بالمواد التموينية فى السوق السوداء . نشروا إعلانا فى الصحف اليومية تتصدره صورة له (إنتزعوها من رخصة القيادة) . رددت الاذاعة أوصافه فى النشرة المحلية لعدة أيام . لم يجدوا له أى أثر . إخوته سافروا شرقاً وغرباً . لبست زوجته عليه ثياب الحداد . نسيبته ــ تعبيراً عن عدم حبها له ــ مطت شفتيها فى تأفف ظاهر . قالت : ياهو من يومه كان شبه عمله زى دى . إلا كان ساويلوا عمله شينة .

تحدث بقولها كل الرجال ، لم تصمت ، كانت تؤكد دائماً أنه

هرب وترك إبنتها . أسرت لبعض النساء بعد شهور من إختفائه . قالت إنها ستذهب إلى القاضى الشرعى لتشاوره فى الأمر . إلى متى ستظل ابنتها تنتظر رجلا لايقدر مسئولية بيته .

كانت الحرب بينهما سجالا . هى إمرأة لاذعة سليطة اللسان لاتخشى سلطان الرجال . وهو رجل مناكف شرس على إستعداد أن يموت إذا ظن أن هنالك ما يمس كرامته . تسيطر عليه فكرة أنه سليل الملك نمر سيطرة تامة .

امتدت حملة إخوته لأكثر من عام . كلما سمعوا ببلد يعيش فيه ، سافروا . وصلوا حتى قيسان . الكرمك . غرباً حتى الفاشر والضعين . كان عند ما يتأكد أحد ما من شخصيته . يهجر البلاد إلى بلاد أخرى تارة يحلق ذقنه وتارة يربيها . عندما علمت أنه حى . إلا أنه يهرب من إخوته . زغردت هتفت قائلة .

أنا أمك يارقية . ماقلت ليكم الراجل إلا كان ساويلوا عملة شينة . الرجال المتله كدى مابقدروا على بتى دى .

ذهبت إلى القاضى الشرعى . إستصدرت أمراً غيابيا بالطلاق لإبنتها . أعمامه وإخوته كظموا غيظهم .

كان مصرا على الإختفاء حريصاً على أن لا يجده أحد إزاء هروبه المتواصل وبعد أن ضاع فى قرى دارفور النائية التى يصعب الوصول إليها قال لهم إمام الجامع :

ـ خلوه الله بيهديه ويرجع ، حكمته بالغة .

شيخ نيجيرى أفاق فى (الحلة الجديدة) أخذ منهم أكثر من مرة مبلغا كبيرا من المال . حدق فى طشت مملؤ بالماء . تمتم ، تلعثم ، كبر ، أطلق البخور وقال :

ـ بكره تجى راجع .

لكنه كالغزال الشارد ينجح دائما فى الهروب من إخوته وأهله . أخوه الأصغر وهو شاب أحمق . قلب الأمر فى عقله طويلا . لم يصدق أخاه يهجر زوجته الصغيرة الجميلة بعد عدة أسابيع من زفافه عليها . وبهذه البساطة . ويترك المنزل دون ان يقول لأحد . يواصل الهروب والإختفاء عنهم لأ كثر من عامين .هدهم السفر والتجوال فى البقاع النائية . لابد أن هذه العجوز الحيزبون التى كانت تردد دوما منذ البداية أنه لم يمت بل هجر منزله ، لابد أنها تعرف شيئا كان الوقت بعد الظهر بقليل. قمة حر النهار .عندما جالت بزهنه أقاويل الناس التى مست رجولة أخيه وهذا هو السبب المعقول لهروبه فى شهر العسل فار دمه بفعل التفكير وحرارة الصيف .حمل بندقية الصيد القديمة التى ورثوها عن والدهم واتجه إلى منزلها حيث تقيم هى وإبنتها .كان طويلا قوى البنيه يستطيع أن يخيف عشرة رجال .ناهيك عن إمرأة عجوز .وجدها نائمة على ظهرها رشت (البرنده) بالماء .خدرتها ، لم تشعر به عندما فتح الباب . خاطب نفسه وهو يعض على أسنانه .

النوم ما لقاه أخوى ياعجوز الشوم .الليله البلا جاكى .

وضع فوهة البندقية على نحرها .فزعت حاولت أن تنهض وقد عقد الخوف لسانها .تحدق بعينيها فى فزع ظاهر .

قال لها بتهديد جدى على بالطلاق . قولة واك ساكت يانى المفرغ البندقية دى فوق راسك .

جحظت عيناها أكثر ، تصاعدت أنفاسها ، تصبب العرق من كل جسدها .

– أخوى سافر خلى البلد مالو.

مانى عارفـــة .

– على بالطلاق تانى تردى الكلمة دى يانى الشايل راسك بره. بدأت تتنهد .تتململ محاولة كسب الوقت . عل أحدهم يدخل عليهما . فهم قصدها .

- على بالطلاق لو جات الدنيا كلها ، وقفت هنا . ياهو قدر الله نافذ كان ما إتكلمتى، ياها نار البندقية ماكله راسك. ضغط فوهة البندقية، لم تستطع أن تتنفس، سالت الدموع من عينيها أنهارا .قالت له أنها عجوز في عمر أمه ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى الناس أن يكونوا عطوفين بكبار السن ،وأنها لا تريد أن تموت قتلا مثل الكلب.لم يأبه لذلك وصل قمة الهستيريا التى يمكن أن تصيب شاباً احمقاً . : أنا أخوك ياعبد الواحد ، يامره هو ما اخيرلك تتكلمى يامره أنا ما بهظر .إنتى درتى الموت براكي ، يامره الله أكبر الله أكبر عليكى .

رأت عروق رقبته تختلج بشدة ، يلهث كمن يصارع ثوراً ،ترتجف عضلات يديه ووجهه .لم تستطع حتى أن تبلع ريقها .تخيلت نفسها تتلوى ميته ،مثل أحد الكلاب الضالة ، التى اطلق عليها الرصاص فى الطريق العام .. اعترفت فى ضعف ووهن بصوت خافت .

-: وحات النبى ماسويت ليه حاجه، وحات حاج عربى ومكاوى ماسويت ليهو حاجه .لكن يومها داك ، جاء الصبح بدرى يتسير تحت حوشنا ، عرفته من صوته لامن إتنحنح

تلاحقت انفاسها وهى تنظر له تارة ،وللبندقية تارة أخرى واصلت حديثها .

- :بعدين قام ضرط ، أنا قلت ليه بحساً عالى ، عاد دى فعلة راجل ياعبد الواحد تضرط تحت حوش نسيبتك .

نظرت له وفوهة البندقية تضغط أكثر على نحرها .بصق على الأرض بقوة هرول خارج المنزل مسرعا .حاولت أن تنهض .تهاوت خائرة القوة .نائحة باكية . شريط طويل من الماء ينساب من تحت (العنقريب) الذى ترقد عليه شعرت بفزع هائل . عندما فتح الباب ودخلت عليها حاجة فاطمة دون سابق وعد ، دون ان تشعر توزعت نظراتها بين المراة القادمة والأرض المبتلة . . . .

البحث عن مايكل

بدأ شكله تحت أضواء النجفة الكبيرة مثل غراب عجوز مجنون .. حادثت نفسها .. لونه أسود ، ويلبس بدلة سهرة سوداء ،ماذا دهاه .
كان قد إندفع لساحة الرقص فى فندق (بودابست) ليرقص عندما عزفت الفرقة الموسيقية (رقصة السيف) لخاتشاتوريان (١) ... أصيب بحالة من الهياج يتطوح يهتز وحده فى الساحة ، دمدم بغناء غير مفهوم .. أحاط به مجموعة من السكارى يرقصون يدورون حوله ، صائحين مهرجين مثل مجموعة من المتوحشين ترقص حول نار فى الغابة ..

إخترق دائرتهم الصاخبة سقط مجهداً علي أقرب كرسى .تجلس وحيدة تدخن بوغتت إضطربت ..

-: أزعجنى هؤلا السكارى ،أريد أن أرقص وحدى ،آسف أزعجتك قليلا لا تخافى

ضحكت أخفت ضحكتها بيدها .

لماذا تضحكين ؟

مم أخاف أنت ليس أكثر من سكير مثلهم .. دعاها لترقص عندما انسابت موسيقى هادئة ، كان ودوداً مهذباً ، رغم رائحة الخمر القوية التى تفوح من فمه ، لم يحاول أن يلتصق بها أو يضمها لصدره مثلما يفعل الاخرون .. يرقص جيداً كراقص محترف ، لم يحاول ان يغازلها او يصب فى اذنيها كلمات الإعجاب الكاذبة ..

قال :ـ

ـ الرجل الضخم مثل الثور ، الجالس فى المائدة على اليسار ينظر لنا شذراً..

خافت أن يذهب ويتحرش به ، كلاهما ثمل ،وهى إمرأة ..

نحن نرقص مثل الاخرين ، لا نفعل ما هو مخالف للطبيعة ، لاتكترث له أننى حرة أفعل ما أريد ..

ــ بالنسبة لمثل هؤلاء الناس حريتك الشخصية لاتعنى شيئا ...

غيرت دفة الحديث ..

أنت ترقص جيداً

ــ الرقص يجرى فى دمنا نحن الأفارقة ..

لماذا تشرب كثيراً ؟

ــ لى همومى الخاصة ، وهموم الوطن ، الشوق للوطن البعيد ..

لماذا دعوتنى للرقص ؟

ــ وجدت نفسى وجهاً لوجه أمام فتاة جميلة فى مائدة واحدة ، قال دون ان يدرى ..

الشيطان وحده يعرف . . .

ــ ضحكت ضحكة خافتة ..

تتحدث الروسية بطلاقة ، أين تعلمتها ؟

فى الكلية بالطبع .لكن فى أحيان كثيرة أذهب للبارات‌التى تقدم البيرة .هنالك يأتى العمال المسنون، السكارى المحترفون، يعجبنى أن أجلس معهم وأحاورهم ساعات طويلة ..

لماذا تجلسين وحيدة ؟

أنا وصديقتى تواعدنا على اللقاء هنا .لكن لم تحضر ..

وأنت ؟

ــ الصدفة البحته قادتنى إلى هنا ، رغبت في أن أجلس لوحدى فى مكان ما .. أستأذنها فى أن يجلس معها وجدته أكثر وسامة .. شكله عندما كان يرقص لوحده يبدو منفراً قبيحاً .. من أين للزنوج بهذه الأنوف المعتدلة يحب الموسيقى .. تحدث عن خاتشاتوريان ،شستاكوفتيش (٣) تحدثا قليلا عن الشعر له آراء متطرفة . يفتو شنكو (٤) أصبح مهرجاً أكثر منه شاعراً . بلاتو نف (٥) هو أشجع من فيهم موهبته عظيمة . سحرها بحديثه عن كل شيء . كأنه قد ولد وتربى هنا . .

كانا آخر من غادر المرقص رافقها حتى محطة المترو ذكر لها عنوان غرفته في دار الطلاب .. سيمتلئ قلبي سعادة إذا حضرت آخر الاسبوع . اليوم الأربعاء أليس كذلك سأنتظر مساء السبت .. لم تجد في حقيبتها ورقة أوقلما لتكتب العنوان . . .

ذاكرتي قوية سأتذكر كل شيء .. وهي تستسلم للنوم ، تذكرت أنها نسيت أن تسأله عن وطنه عن حياته هنا ، دراسته ، لم تحك له حتى عن نفسها . لم يسألها عن إسمها ساورها بعض القلق . طمأنت نفسها . . سيأتي حتما . . .

دخلت مبنى جامعة موسكو الرئيسي دون أن يعترضها أحد بلبسها البسيط ومظهرها العام . . . تبدو مثل طالبة سألت بعض الطلاب الأفارقة ، سألوها بدورهم . .

في أي كلية يدرس ما هو اسمه بالكامل .. من أي بلد ، مايكل وحدها لاتكفي . .

طويل نحيل ، يميل للهدوء ، على قدر من الوسامة . يجيد الحديث بالروسية .. أنبت نفسها عندما رأت الواقفين أمامها يشبهونه بعض الشيء.

: ربما كان هذا ماكيبا التنزاني . كان هنا منذ لحظات .. إنتظرى قليلا ..

عاد به وجده يستعد للدخول لدرس عملي في الكيمياء..

تعال معي لمدة خمس دقائق فقط ..تنتظرك شقراء مثل القمر كأنها آتيه من الجنة الآن ..

: لكن ليس لي أى صديقة شقراء . .

لايمكن لأحد أن يرفض مثل هذه الفتاة . أنت تعرف أننا نتعامل بشرف في هذه المسائل . كان يمكن أن لا أناديك . إذا لم تتعرف عليها اتركها لي .. أصبحت أمل إيفا اليهودية ...

أسرعا عند ما رأته تجهم وجهها خيم الحزن الخائب على سماء عينيها الخضراوين الواسعتين .إندفعت خارجة من المقهى ، إحمر وجهها بذلت

جهدا حتى لا تبكى أمامهم .. تجاهلت نداءاتهم المتكررة بأن تنتظر ...
رفيقتها فى الغرفة قالت لها ..

: هل جننت يا أولقا ، أنت تطابين المستحيل ..

أنا متأكده أنه لم يحضر فى الميعاد الذى ضربه لى إلا لعذر قاهر سأجده ، انه يبحث عنى الآن كلماته كانت تصدر من عقل وقلب كبير ..

إنهم كاذبون ، يخدعون الفتيات يقضون معهن هنا وقتاً مسلياً ، ثم يسافرون بعيداً حيث تنتظرهم فتياتهم ، فكرى جيداً كيف سيكون لون أطفالك ،هل ستسافرين معه ، وتعيشين فى مجتمع أسود طوال حياتك أى علاقة يجب أن يكون لها نهاية .. ما هى نهاية علاقتك به إذا عثرت عليه ، أنا شبه متأكدة أن له أكثر من صديقة ، إنه أعطاك إسماً وعنواناً وهميين ..

إنه يختلف عنهم ، مثله لايمكن أن يكذب أبداً .. فى مصنع الملابس الجاهزة قال لها رئيسها المباشر .. انتاجك قل فى الاسبوعين الأخيرين كثرت طلباتك بالخروج قبل مواعيد العمل الرسمية .. إننى أنذرك .تبدو ساهمة شحبت تبحث عنه فى كل دور الطلاب الأجانب تعرضت لمضايقات كثيرة ، اضاعت كثيراً من الليالى فى أماكن تواجد الطلاب الأفارقه مثل المجنونة ، أكثر من مرة هاجمت احداً يشبهه فى الطريق. تراجعت معتذره .. ذهبت إلى فندق بودابست ،وزميلتها فى الغرفة لا تمل من ان تردد فى الأماسى الحزينة :

أنسى كل شىء ، كان لقاءاً عابراً ،أنت تتوهمين أشياء لا وجود لها أصلا . ليتنى حضرت فى ذلك اليوم ولم أتأخر عليك ، إنهم هنا بالالاف وأنت لاتعرفين منه غير إسمه الأول فكيف تعثرين عليه ..

جلست باكية تكتب لوالدتها فى مدينة (كييف) خطابا طويلا طلبت منها أن تأتى وتساعدها فى العثور عليه .. تحلم به كثيرا يسيران

سوياً متشابكي الأيدي تحت رزاز المطر في الطرقات التي تظللها الأشجار الإستوائية ، يأكلان لحم الغزلان المطبوخ بالبهار . يرقصان مثلما رقص هو لكن نصف عرايا ، على إيقاعات الطبول يقطفان ثمار جوز الهند .

يحتضنها في ليالي البدر المكتمل بين زراعيه السوداويين الطويلتين بصوته المهذب العميق . يهمس في أذنها كلمات العشق الأفريقي .تصحو من نومها محبطة يعتصرها الارق حتى الصباح .تستعيد في خيالها للمرة الألف .. قامته الطويلة النحيلة . شعره المجعد المشذب .وجهه الوسيم المتعب كانت لحظات قصيرة . لكن سلوكه وكلماته عزفت في قلبها المشتاق للحب ألحانا لا يمكن أن تنسى أبداً .. أخذت تتابع أخبار أفريقيا في الصحف والتلفزيون ، إشترت أكثر من كتاب ...

عندما أقابله يجب أن تكون معلوماتي جيدة ..

قال لها أحدهم :

ربما كان مايكل أكيبو من أنجولا .. يدرس الإقتصاد السياسي في لينجراد .. يأتي إلى موسكو كثيرا في مسائل تتعلق بتنظيمات الطلاب الأفارقة في شرق أوربا .. كان هنا بالفعل قبل أسبوعين في طريقه لمؤتمر خارج الإتحاد السوفيتي . ربما أكون مخطئاً ، لاتأخذي كلامي على اساس أنه كل الحقيقة ..

ساعدها أحد معارفها في الحصول على اجازة مرضيه لمدة أسبوع ركبت (السهم الذهبي) قطار المساء الذي يصل لينجراد في الصباح الباكر حقول زهرة عباد الشمس والقمح تمتد على مدى البصر تتخللها غابات الصنوبر المرتبة مثل كتائب الجند المرصوصة .. تستعد لملاقات الريح ، قلة من الفلاحين ينتشرون بين الحقول .. طيور الحقل النشطة ،تطير فزعاً مبتعدة .. أفزعها هدير القطار ..

تحدق من نافذة القطار. لينجراد تلوح ملامحها من بعيد في الافق الصباحي

المعتم .. يجب أن تجده هنا .. ستبحث عنه فى كل شبر منها ،متنزهاً على جسورها القديمة . متجولا بين متاحفها وقلاعها المشهورة فى بارات البيرة يحاور الشيوخ السكارى .. آه لوتجده، تنهدت بعمق .. آه ثم آه ثم آه إن لم تجده فى نهاية ممر العربة الصامته إلا من هدير عجلات القطار الرتيب لمحت شاباً وفتاة يتعانقان ،الفتاة تحيط عنق الشاب بيديها كأنها تذوب بداخله .. إتكأت على حافة النافذة .دفنت وجهها بين يديها ، أجهشت بالبكاء حتى إنتفض جسمها .. تقدمت الطلائع الأولى من أشعة الشمس الصباحية ،رفعت رأسها وعيونها مترعة بالدموع .. يتعانقان دون أن يشعرا بوجودها ،دفنت وجهها من جديد بين يديها واصلت البكاء بحرقة (السهم الذهبى)يشق حقول عباد الشمس والحنطة مقتربا أكثر فأكثر من المدينة ..

(١) موسيقار قائد اوركسترا مشهور من جمهورية ارمينيا
(٢) تعبير شائع الاستعمال فى اللغة الروسية ..
(٣) موسيقار روسى مشهور كان مضطهدا فى سنوات الستالينية
(٤) شاعر روسى شاب عاصر مرحلة إطلاق الحريات إبان حكم خروتشوف ،محبوب من قبل الشباب الروسى .
(٥) من أعظم كتاب القصة القصيرة فى روسيا بعد تشيخوف اضطهد فى سنوات الستالينية مات مدمناً بالخمر ، رد له اعتباره فى السنوات القليلة الماضية .

الرجل الثانية

في ذلك الزمن البعيد . كان عدد أطباء الحكومة قليلا ، لدرجة أن (البصير) في بعض المناطق ، كان أكثر نفوذاً وثراءاً من العمدة نفسه . والأمر الذي يجعلنا نحكي هذه الحكاية ، ليس الصراع بين العمدة والبصير ، بل شجاعة الجعليين وفروسيتهم التي طبقت الآفاق فبجانب عنادهم الصارم ، فإن الواحد منهم يتحول في اللحظات الحرجة إلى صخرة لاتتزحزح ، حتى لو كان الموت يفتح له ذراعيه .

هكذا كان (الفاضل ودعمسيب) عندما أصابت رجله الغنغرينا . أثناء عمله في الحقل ، انغرز في رجله مسمار كبير صدىء ، نادى على جاره ، جلسا تحت ظل شجرة اللالوب الكبيرة ، انتزع جاره المسمار بطرف سكينه ، ضمد مكان الجرح بروث البقر الجاف ليوقف تدفق الدم الأسود الذي انساب بغزارة . ربطها له بخرقة قماش :

: الدم الفاسد مرق، أنت عاد ماك راجلا محظوظ ،قوم تابع موية جداولك ، على الطلاق (أشكدى) ما يقوم ليك .

صباح اليوم الثاني . تورمت قدمه . تحامل على نفسه ، ذهب للحقل. ظل يعمل وهو يعرج حتى العصر .حمل له الليل الحمى والعرق الغزير لدرجة أنه (ولأول مرة منذ سنين) لم يقرب أم اولاده . في الصباح كانت رجله قد انتفخت حتى الركبه .اشتد الالم لدرجة ان صرير اضراسه كان يسمع خارج الغرفة . أرسل أهله في طلب البصير (الشيخ عطا المنان) والعمدة . نطق البصير بالشهادة . أشار برأسه عدة إشارات تدل على الأسى وخيبة الأمل . قال :

: الرجل دى لازم تنقطع . كان ما قطعناها الورم ده لى بكره حيملا الجسم كله .

وهم ينظرون ناحية (العمدة) سأل أخوه ود عمسيب وأبناء عمومته

: مافي دواء تاني ،ياشيخ عطاالمنان ! الرجل اليمين ما ساهله !

: ماتضيعوا وقتكم ساكت ،داك دكتور الحكومة في الدامر ، وياكم الواصلنه بعد تلاته أيام وكان وصلتوه ،ياهو القاطع الرجل ، الرجل دي خلاص مافي منها فايده ،، أحسن ماتأتموا اولاد الراجل وأضاف بكلام الرجل الواثق من نفسه

ـ أنا قلت تنقطع خلاص لازم تنقطع .

إتخذ القرار وحده ، دون أن ينظر حتى ناحية (العمدة) . دخل على (ود عمسيب) في الغرفة الرطبة المظلمة . ناداه بصوت جهوري يبدو مضحكاً مع كبر سنه وجسده الضامر .

: ود عمسيب . العافية من الله . . . . ولا شنو ؟

: كلامك في محله .

: عاد يا أخوى الورم ده ماشي ، والرجل دي كان ماقطعناها بكره ياهو اللاحق جنتتك كلها ، العافيه من الله ، والله يخليك لأولادك

فتح ود عمسيب عينيه المحمرتين من الألم، وهو يتصبب عرقاً إتكأ بكوعه على العنقريب .

: أقطعوها .

أمر الشيخ عطا المنان برطل من (الودك) يسخن لدرجة الغليان و (بنبر) كبير . أمرأن تحفر حفرة كبيرة فيمنتصف ساحة المنزل وضع (البنبر) بقربها . هرول إلى منزله . عاد يحمل سكينا كبيراً . وضع السكين بين الجمر .

ذهب الرجال لإحضار (ود عمسيب) رفض أن يتكىء على ذراع أحد . تحامل على نفسه . مشى دون أن يعرج حتى ساحة المنزل . يضع رجله المتورمة بثبات على الأرض . ربط (شاله) بقوة حول وسطه . لف عمامته (الكِرب) البيضاء بعناية بقميصه البوبلين الأبيض (الذى يلبســه في

المناسبات فقط) . يبدو مثل عريس فى ليلة زفافه . ودعمسيب رجل وسيم مربوع القامة . ضربة واحدة (بالطورية) ، من يديه القويتين القصيرتين . تحفر أخدوداً عميقاً فى أحشاء تربة الحقل .

تجمعت النساء حول زوجته فى المطبخ نائحات . ولى الصباح تشد الشمس الرحال نحو منتصف السماء . وشوشت أشجار النخيل – العالية – للقرية فى أذنها ، ربما أسرت للريح بالأمر لتحمله للقرى المجاورة . لم تشأ والدته و (عماته) أن يتركنه يواجه هذه المحنة وحده . تتحلقن حولــه صامتات . صارمات الوجوه . زمت كل واحدة منهن شفتيها حتى أصبح فمها فى إستدارة الخاتم . تجاعيدهن زادت وجوههن صرامة وجفافاً .

تمت العملية ببساطة . فصل شيخ عطا المنان ساق ود عمسيب من عند الركبة ، بالسكين التى إحمر نصلها . قطعها قطعاً متساوياً ، مثلما يقطع جزار متمرس ورك عجل سمين . سكب (الودك) الحار حتى يوقف تدفق الدم مكان البتر .

كل ذلك وود عمسيب لم يرف له جفن ، لم يهتز ولم يقل آه . بل أن وجهه كان طبيعياً فقط ، هطل العرق كان بغزارة من جبهته. يكاد يسمع دقات قلوب الرجال المتحلقين حوله .أجهش أحدهم بالبكاء فجأة ، صوت هامس مرتجف يقول :

: استغفر الله . . . استغفر الله ، استغفر الله .

كانت والدته تقف صامته ترقب سلوك ابنها البطولى ،ابنها سليل الملك نمر ،لم تتمالك نفسها نسيت الموقف الصعب .تذكرت أمجاد أجدادها هذا هو أحد أحفادهم . ابنها بالتحديد ،تقطع رجله دون أن يرف له جفن ، ولم تخرج من فمه حتى لفظة ... آخ . ، وذلك نهاراً جهاراً ووسط حشد من الرجال والنساء . إنفعلت ، انطلقت تزغرد .وقفت فوقه تماماً حتى غطاها ظلها . زغردت زغردة طويلة ، جلجلت زغاريدها وهى تهرول فى الساحة ، تدور حوله .إنتقلت العدوى لاخواتها ،والنساء

الحاضرات ، زغردن كما لم تزغرد أمهاتهن من قبل . فى المطبخ كان لزوجته زمام المبادرة ردت على أمه بزغروده طويلة . تلتها صديقاتها وجاراتها . دامت الزغاريد لدقائق ،زغاريد لم تسمع مثلها القرية من قبل فى أى فـرح جـعلت ود عمسيب يتذكر فى لمحه سريعة أيام صباه، وفتوته ، أيام كان (يعرض) امام الدلوكه حتى يبتل قميصه بالعرق.

كان جالساً على (البنبر) الكبير وسط الساحة ، يشعر بالفعل أنه مثل أى ملك من ملوك الجعليين . لـف الرجال الساق المبتورة بقطعة قماش . أسرعوا دفنها فى المقابر القريبة . كان جالساً دون حراك .أنفاسه تتلاحق . مهرجان زغاريد النساء أثر عليه كثيراً .وهو يقاوم حالة إغماء بدأت تغشاه رويدا رويدا ،صاح فى شيخ عطاالمنان منادياً .

: على بالطلاق أكان ماقطعتو التانيه ،حلف يمين يانى الماقايم من هنا كان ماقطعتو التانية . أنا أخوك يالتومه ، آفو، آفو ،والله كان ماقطعتوها يانى الماقايم من هنا .

مال (بالبنبر) قليلا حتى توازى رجله السليمة الحفرة التى امتلأ ت عن آخرها دما متخثراً أسوداً .

الذهب البراق

تجملت (فضلو ساتر) تكحلت ، مسحت وجهها بدهن الكركار المعتق حتى أصبح يلمع مع الشمس ، وتأكدت أن الدهن تخلل مجارى شلوخها المطارق العميقه ، وضعت بعض عطر الخمرة تحت إبطها وبين فخذيها ، فالمشوار بعيد ، وهي تخشى رائحة العرق ، تنوء بحمل سلة كبيرة تحوى أواني إعداد القهوة. اليوم ميعاد زيارة سيدى الحسن ، وهى (شايله نذر) يعرف سره هما الإثنان فقط .

كان بنيانه منعزلا خارج المدينة ، الان إمتدت المباني حتى أصبح وسط الأحياء تقريبا ، يمر أحد خطوط البصات الداخلية بالقرب منه لدرجة أن الركاب إتخذوا من أشجاره الطايلة مظلة تقيهم الشمس الحارقة ، تسوره الرايات البيضاء ، تحرسه نيجيرية لا أسنان لها ، يقال أنها تشرب دماء الأطفال .

تذكرت فضلو ساتر شيئاً هاماً ، الذهب .. عادت أدراجها البيت ، كان الأطفال يلعبون بالخارج ، الزوج خرج ، كما يقال زيارة سيدى الحسن مجال للإستعراض والوجاهة و (البوبار) وكان أن غطت يدها اليمنى حتى منتصفها بالأساور الذهبية من كل نوع ، لبست كل ماعندها ، أثناء سير الباص تعمدت ترتيب ثوبها أكثر من مرة ، تمسك بطرفه ، تقذفه نحـو كتفها الأيسر بيدها اليمنى فيصلصل الذهب فى يدها محدثا صوتاً رناناً لايعرف تأثيره ، إلا من يملك ذهباً ، شعرت بنشوة هائلة عندما ضبطت عدة نسوة ينظرن ليها ، يسترقن السمع لإنشاد ذهبها البراق .

أسرع سائق البص . ميدان صغير يتوسط المدينة . بعض الصبيه يلعبون . مباراة حامية فى كرة القدم . طارت الكرة بعيدا . جرى خلفها أحدهم على طريقة الأطفال الزقزاقية ، إقترب من العربة ، تفاداه سائق البص ، لكن الطفل تابع الكرة . إندفع أكثر أمام الأمام ، تفاداه ببراعه ،

مال يساراً ، مال أكثر ، أخيرا إنقلب على جنبه ، إنقلب مرة أخرى ، إصطدم بعامود كهرباء ، ارتفع الصراخ والعويل . هرول الناس من السوق القريب ، بدأوا فى إخراج ركاب البص من تحت أكوام الحديد استطاعوا بصعوبة إخراج فضلو ساتر ، كانت الدماء قد غطت كل جسدها ، تندفع بقوة من تحت كوعها الأيمن بقليل ، قطعت يدها ، ولم يكن أحد ليهتم أين يدها المقطوعة . وتحت أى مقعد هى ، كان هم المنقذين الشاغل وقف النزيف الدموى وبسرعة ، خصوصا وقد كان بينهم مساعد حكيم متقاعد . كانت عربة الإسعاف قد وصلت . بدأوا فى نقل الجرحى بدأوا بفضلو ساتر أكثر الحالات خطورة ، حملوها على المحفة نحو عربة الإسعاف ، لفوا يدها مكان القطع بعمة تحولت لكتلة لزجة حمراء . كانت تغالب الإغماء الذى بدأ يغشاها لكثرة ما فقدت من دماء ، حاولت أن ترفع رأسها بوهن من المحفة ، وهى تشير بيدها اليسرى الملطخة بالدماء نحو عربة البص المقلوبة مرددة بصوت واهن .

ـ دهبى . . . سجم أمى دهبى . . . ياناس دهبى . خصمتكم باللـــه دهبى ، النبى فيكم كان ما وقفتوا .

وعندما إبتعدت المحفة أكثر ، ردد الصوت الواهن . . .

ـ الدهب ورروب الرسول تقيفوا يارجال ... الرسول جيبوا لى دهبى النبى كان ما تقيفوا يارجال . . . الرسول جيبوا لى دهبى ، النبى كان ما وقفتوا ، بتدلى براى جيبوا .

فكرة غريبة

بينما كان ظل الضحى يتقلص ، يتحول إلى شريط رقيق تحت أسوار المنازل ، غيرت بت هداية الله موقعها لراكوبة صغيرة داخل منزلها ، هنالك فرشت أمامها أعواد قصب السكر ، اللالوب ، النبق ، الموز ، الحلــوى بنفس الترتيب ونفس طريقة العرض التى تعودت عليها منذ سنوات أمام المدرسة الأولية .

بدأت العطلة السنوية للمدارس . موسم الكساد ، لكن الأطفــال تعودوا أن يأتوا لديها ، الهجير . شح النقود فى أيديهم أيام العطلات ، لهذا تبدوا لها شهور العطلات الثلاث مثل السنة ، وتشتاق لصياح الأطفــال وتحلقهم حولها أيما إشتياق ، تمر الثلاثة أشهر بطيئة ، اليوم يجر اليوم الآخر خلفه متكاسلا ، النقود تأتى لها أيضا متكاسلة ، عدة قروش طوال النهار جفت أعواد القصب اتسخت الحلوى ، البوار البطىء .

كانوا يعدون لها القهوة ، تسمع طرقعة الهون الحديدى ، رائحــة البن النفاذة ، حانت منها إلتفاتة لمقطفين تحتار أمامهما منذ عدة أيام ،مقطف به (محريب) والآخر (سنمكة)هدية من قريبة لها فى الشمالية ، يا حليل زمن الدوا البلدى ، يا حليل زمن سلطان السنماكة والمحريب ، والحرجل والسنمكة . كانت هذه الأعشاب تساوى وزنها نقوداً . هذه الحشائش الجافة المهملة الآن .

استغرقت فى التفكير وهى تنظف أسنانها بعود كبريت . سرقها الماضى من الحاضر الذى تعيش على هامشه . طاردت أطياف طفولتها . الشباب ،المنزل حتى حياة أبو الاولاد . فجأة داهمتها فكرة غريبة ، هذا طبعها فالأفكار الغريبة دائما تداهمها فى لحظات لاتتوقعها فيها، الآن داهمتها الأفكار الغريبة وهى غارقة فى لجة بحر الذكريات ، أليست هذه لحظه غريبة . تختارها فكرة غريبة . .

وضعت سفة كبيرة ، نادت أحفادها ، عبر الحائط صاحت بجارتها أن ترسل لها إبنها الوحيد استدعت بعض الأطفال من الشارع .
تجمع الأطفال أمامها حائرين ، قالت :

أمشوا قضوا لى مشوارى ده . تعالوا بديكم حلاوة ونبق بدى كل زول العاوزه .

– وزعت عليهم بعض النقود كيفما إتفق .

()إنت أمشى لى على اليمانى ، وأنت لى عبدالله فى ركن الشارع وإنت لى الماحى الفى طرف السوق ، وإنت لى عبدالكريم فى وسط الحلة، إنت لى الشايقى، كقائد جيش محنك وزعتهم على المتاجر . أصدرت أوامرها النهائية لكل واحد منهم .

()إنت قول ليه عندك سنمكة ؟ ، وإنت قول ليه عندك محريب ؟ . توجهوا للمتاجر . عادوا لها جميعاً بخفى حنين . شعرت بسعادة غامرة . هذا ماأرادته تماما . بعثت بهم من جديد للمتاجر . كل منهم ذهب لمتجر آخر . هكذا داروا بين المتاجر سائلين . وزعتهم بحيث لا يتكرر وجه الطفل أمام صاحب المتجر جعلت بين مشاويرهم فترات زمنية قصيرة ، ولم تمر ساعة حتى كان كل متجر قد زاره عدد كبير من الأطفال يسـألون عن السنمكة والمحريب وزعت عليهم قصب السكر والحلوى إنتظرت لما بعد العصر ، حملت قفة السنمكة على رأسها . إختارت على اليمانى .

()على ، مساك خير . عندى ليك بضاعة مرغوبة الأيام ديل . وكان ما مرض ركابى كان بعتها براى . إلا بس القعاد بقى صعب على قلت أجيبها ليك . كان ما دايره بيعها لى . وأنا بعدين بديك حقك . ولاشنو .

()بضاعتك شنو ياحاجة هداية الله ؟

()سنمكة . أنا ما عارفة نسوان الجن ديل الطراهن ليها شنو ، لامن كتر سؤالن منها . رسلت لى أهلى فى البلد ، رسلوا لى قفة قلت أطلع منها قرشين تلاتة .

تذكر طوفان الأطفال قبل عصر اليوم ، فكر بعقلية التاجر لم يختلفا في السعر ، رجعت إلى المنزل . حملت مقطف المحريب على رأسها توجهت لدكان على الشايقى . دار نفس الحوار .. تذكر الشايقى أيضا طوفـــان الأطفال . حرصا على أن لا تفلت هذه البضاعة من يده ، ولأنه لم يكن لديه الكفاية من النقود . أخذت ثمنها بضاعة من دكان الشايقى . عـــدة أصناف من الحلوى . لمعت عيناها . تناولت سفة كبيرة قبل أن تغادر دكان الشايقى .

حمام دافىء

بمطارقه الباردة ، حطّم الشتاء كل أوعية الدفء . حتى الغرفة أصبحت باردة مثل الثلاجة ، وهو يتلفح بشال كبير أحضره معه من الحج . الحياة نفسها أصبحت باردة مثل الشتاء . الأولاد كبروا ، تشتتوا فى الأرض بينهم الناجح ، والخائب ، الذكى ، والغبى ، اللئيم ، والطيب المرح . البنات تزوجن وملأن الحياة أحفادا . التجارة كسدت . زمان كان يهز الأرض عند ما يمشى . يواجه الشتاء القارص صباحاً بقميصه (الكرب) الخفيف . أما الآن فهو يحتمى بالغرفة والشمس لم تغب بعد . ينتظر الماء الدافىء ليستحم ، وهذه المرأة العجوز كان عندما يصيح زمان ياولد تنهض وتقع مرة ، مرتين قبل أن تصل عنده مرتجفة .

صاح :

() ياحاجة . . ياحاجة الموية ما دفت . . ميعاد العقد قرب .

() خلاص قربت . النار ماولعت لى . ده فحم شنو الجبته لى ده

ما الذى جد فى حياة هذا الرجل المخرف ! من الأفضل أن تذهب وتعيش مع أحد أولادها . منذ متى كان يذهب لحضور مثل هذه المناسبات الليلة عقد بت فلان . وبكرة عقد بت علان . طرد الخادم دون سبب أمس قضى نصف اليوم يحمل مقصاً كبيراً . جز به صوف الأغنام . زوجوها له صغيرة . أضاعت معه شبابها ، الآن خرف وهى لاتزال تعانى من آلام الحيض حتى الآن . بكت بالفعل . إنسابت دموعها . بدأ الماء فى (الكفتيرة) يغلى سمعت قرقرته ، هنالك من يطرق الباب . . .

() ثلاث من جاراتها .

بعد السلام والكلام والسؤال عن الصحة . إتجهت نحو المطبخ عادت تحمل أوانى الشاى بدأ الشد والجذب . .

() النبى فيكى ما تسوى أى شىء . .

() ما هو الموية جاهزة ، كباية الشاى ما بتسوى حاجة
() لا والله حسه شاربين ، الرسول ما تسويه .
() والله ما بتمرقن بى صمت خشمكن .
صوت الماء فى (الكفتيرة) . يرتفع البخار ينساب من فوهتها . ضاع وقت غير قليل بين ، النبى فيكى ، يعنى شنو ما تبقن مسيخات كدى ، إلى آخر قاموس الود النسائى . أصرت هى إصراراً شديدا ، قد علمها أبوها أنه من العيب أن يدخل الضيف ويخرج دون أن يتناول شيئاً . ليس لديها حلاوة أو كعك . يجب أن يشربن الشاى حتى لايظنن أنها بخيلة ، ثـلاثة أكواب من الشاى ليست بالكمية الكبيرة سيتبقى الماء كما هو يكفى بل يزيد لتدفئة عظام هذا الرجل المخرف . الذى بدأ يتنحنح ويكح ليستعجلها . لم يرد أن يصيح طالباً الماء الدافىء حتى لا تناله ألسنة النساء قائلات . كبر أصبح يستحم بالماء الدافى ، عظامه صارت هشه ، ذهبت إلى الحمام لتحضر الجردل .جارتها بت الأمين . رأت ان تحسم الأمر على طريقتها الخاصة إشتهرت بأنها غريبة الأطوار أو متعارف بين جاراتها بأنها (شتراء) طبيخها ماسخ ولا تجيد الحديث قامت من وسطهن .
() والله ماتسويه ، أنا حلفت بالرسول مابشرب .مابكسر حليفتى
بطرف ثوبها رفعت وعاء الماء المغلى صبت الماء على (المتقد) أطفأت النار بالماء المغلى حتى تضيع على الحاجة فرصة وضع ماء جديد على النار . كان الغروب الشتائى البارد قد طرق أبواب مدينة كوستى .بعيدا سمعت عدة طلقات من بندقية ،هذه عادة الناس فى الأعراس وعند عقد القران .زغاريد تطير بها الرياح .الشيخ البشير جالس على عنقريبه . يكح ويتنحنح بصوت عال عال ،الحاجة سكينه لا تسمعه

بطل من هذا الزمان

تدفقت دماء شمس الغروب على سطح النهر المندفع العكر .على قمم الأشجار وعلى بعد قريب من الأرض رقصت عصافير الحقول الشقشاقة . طارت حطت بأعداد كبيرة .إستنشق النهر عبير الغابة القريبة ثم زفر رائحة الأسماك .الطحالب ،أعشاب الماء .من على التل الرملى الذى تنتشر فوقه قرية (. . . . . .)الواقعة بين كوستى والجبلين تصاعدت رائحة ثريد الذرة .دخان النساء المعطر .روث الأبقار المحروق .

حرك هذا الجو أوتارا شاعرية فى صدر سندلوبة . دندن لحناً من ألحان الدلوكة . سف سفة كبيرة ملأت فمه . تدلت شفته السفلى . تخدر . حك قفاه . أزاح سرواله الكبير حتى الركبة هرش وركه . أزاح ظهره على كرسى الخشب . مد أرجله فى خط مستقيم . أصبح يرى القرية منبسطة أمامه تحت أنفه مباشرة . مقهى الدنقلاوى يقع على طريق العربات بين النهر والقرية يمر بقربه طريق القرية للنهر . لمح سندلوبه طيفاً يتجه نحو القرية قادما من وجهة النهر . تابع الطيف بعينيه . تسمرت عيناه على العجيزة الضخمة المستديرة التى كانت تلعب بثوب (الزراق) مع إيقاع اليد التى تقذف بها صاحبتها للخلف لحفظ توازن صفيحة الماء التى تحملها على رأسها .

خاطب سندلوبه الدنقلاوى بصوت هامس .

: الدنقلاوى دحين إنت دى ما فضلو ساتر ؟

: ياها .

: نان ماله شحمت كدى ؟

أغاظه الدنقلاوى برد جارح .

: المره قاعدة عزباء ليها ثلاثة سنين حلة ما فيها رجال !

تنهد سندلوبه مرة أخرى . إبتعد طيف فضلو ساتر حتى إختفى وسط أكواخ القش المتقاربة . قبل أن تنساب بين كوخين إلتفتت نحو المقهى .

رغم بعد المسافة شعر أن نظراتها تخترق صدره . تضاعف شعوره عندما تذكر عينيها . تشبهان عيون الغزلان الوحشية . بصق سفته الكبيرة . ملأ فمه بالتنباك مرة أخرى . تنهد حتى شعر بالدخان الحار يخترق أنفه .

خلف التل من جهة الجبلين جنوباً إرتفع صوت عربة تجعر وتناضل صاعدة بحمولتها الكبيرة من جوالات القطن . كانا لوحدهما فى المقهى . من كثرة جلوسه هنا أصبح يعرف كل العربات التى تعمل فى المنطقة من أصواتها عندما تئن صاعدة التل الرملى صعب المراس . صادق معظم السائقين الآن موسم جنى القطن لاينقطع سيل العربات المتجهة للمحالج فى ربك وكوستى .

سمع سندلوبه عواءاً متقطعاً . صاح دون أن يشعر :

: الدنقلاوى . . . ده أوستن الشايقى . عاد هى ماعربية . . اها . . ايوه. . أديها ، دوس . . . نهرها خت ليها إتنين ، اها كدى . . .

أوستن الشايقى ذو المقدمة البيضاء المستطيلة يبدو مثل كلب صيد أصيل . صعد التل فى قوة . إمتطى الطريق المنبسط . إندفع دون توقف. الشايقى يلوح له بيده اليسرى . يده اليمنى تقبض عجلة القيادة فى فتوة ، شيعه بزغرودة طويلة مهزارة ، يعرف سندلوبه العربات من عوائها المتعب. جهادها وهى تصعد التل الرملى متجهة نحو الشمال . لايخطى أبداً ، هذه هى سفنجة عبد الله الحاج القديمة . يحافظ عليها ويرعاها أكثر من أولاده ، تبدو جديدة أنيقة مقدمتها مثل وجه العروس ، تطرزها الزينات . تلك (نيسان) ود الأبيض طويلة مثل شجرة البان ، إنها عربة جبارة متوحشة ، هذه هى الفورد التى يقودها ود الكوة ، صعد التل رتل من (السفنجات) الفخورة ، هذه العربة هى بنت أحلامه يتمنى أن يمتلك واحدة لمدة أسبوع وبعد ذلك ليفعلوا به مايريدون .

هدأ الطريق لحين ، إلتفت يساره ليبصق التنباك من فمه ، لمح طيف

امرأة يدخل منزل ناظر المدرسة ، من مظهرها العام عرف إنها إعرابية ، من عمال جمع القطن الذين يسكنون بين الحواشات المجاورة للقرية ، فى مثل هذا الوقت من كل عام، يبعث الناظر والمدرسون المتزوجون بزوجاتهم إلى كوستي ، تعجب بينه وبين نفسه كيف يستطيع الناظر أن يفعل ذلك الشيء أكثر من خمس مرات فى اليوم ، بعد أن يرجع من المدرسةلاينقطع سيل الاعرابيات من منزله ، تخيل منظر السيد الناظر بقامته الفارهة ، صلعته كرشه الهائلة ، وفتاة صغيرة كركمية اللون ، عارية ، تفوح منها رائحة الودك تئن تتوجع بين يديه ، شعر بغصة فى حلقه ، كره الناظر من كل قلبه .

سرح بخياله بعيدا عندما تذكر حواشات القطن التى تنتشر بينها خيام الأعراب الرحل ، النحس يلازمه لمواسم طويلة حواشاته تنتج قطناً لايغطى حتى تكاليف الزراعة ، صاحب المشروع يأتى آخر العام بحسابات مالية تزيد ما عليه من ديون ، كالحلم كالطيف البعيد البعيد ، سبحت فى خياله حواشاته بأشجارها القطنية القصيرة الجافة (رواكيب) عمال جمع القطن نارهم الصغيرة فى المساء ، طعام لحم الأبقار المقدد ، غناء الاعرابيات المغناج ، يدرن بأقدامهن العارية راقصات فى صف طويل يتوهج غباراً مع ضوء القمر .

أيقظه من أحلامه صوت عال . شخير يفوق شخير كل العربات رغم أن هنالك عشرات الشاحنات الضخمة تعمل فى المنطقة إلا أن سندلوبه قال بطريقة آلية :

ده قندران الجعلى الفيات الجديد

برزت من التل شاحنة ضخمة ، الجعلى يجلس خلف عجلة القيادة ، تجر خلفها مقطورة طويلة تهز الأرض هزاً بدت من بعيد بلونها الشجرى مثل فرس بحر عملاقة تعوم فى رمال الطريق ، شعر سندلوبه بنشوة لاتعادلها نشوة ، سف سفة كبيرة ، إعتدل فى جلسته ، أصلح من وضع

طاقيته ، أحلاما لاترقى لإمتلاك (قندرانى) فقط يكفيه صداقة الجعلــى . يكفيه سماع صوت الشاحنة المنتصر وهى تهزم التل كل يوم أكثر من مرة ، كانت الشمس قد ذهبت ، الليل يحتضن القرية ، سحابة كبيرة أخذت وجه القمر بين يديها . الدنقلاوى يستعد لإيقاد مصباح الكروسين الكبير ، وحدها فى المقهى .

من عادة الجعلى أن يتوقف لشرب كوب من القهوة عندما يمر مساءاً يبدو أنه على عجل هذه المرة ، ضغط على دواس الوقود بعد أن تخطى التل ، جعرت الشاحنة الهائلة تحت ضغط السرعة الأولى ، تسحب خلفها مقطورتها المحملة بعشرات الجوالات ، إقتربت من المقهى من خلال زجاج كابينة القيادة ظهرت أسنان الجعلى المبتسم قابضاً بقوة على عجلة القيادة . نصفه الأعلى عار ، بدأ سندلوبه يهتز ضاحكاً صائحاً بصوت عال ، محاولا أن يعلو صوته على صوت الموتور حتى يصل إلى الجعلى ، مشيراً بيده تجاه المقطورة بطريقة مرحة.
: الجعلى عليك الله دلى لى الترله الورا ، بس الترله الورا ، ماداير غيرهـــا هاى الجعلى ، جعلى الجن أقيف ، دلى الترلة ، أريته القطن طاير .

إنتقلت الضحكة المفتعلة من فمه لجسده ، تهز بطنه هزات متوالية بجسده متوسط البدانة ، قميصه ، سرواله الفضفاض ، أصبح عبارة عن ضحكة هائلة موجهة نحو الجعلى والشاحنة التى حاذته فى تلك اللحظة ، مندفعة دون توقف نحو الشمال البعيد ، أطل الجعلى من كابينة القيادة مبتسماً لوح بيده لسندلوبة ، تتسع الإبتسامة فى وجهه ، كان سندلوبه لايزال يضحك عندما حاذته المقطورة . فجأة طار فى الهواء مثل جوال فارغ . كما لو أن عاصفة هوجاء إقتلعته من مقعده . سقط بعيداً داخل المقهى المصنوع من الحصر يرفس مثل الدجاجة المذبوحة ، سمع الدنقلاوى سقوط شــىء على الأرض ، أعقبه أنين خافت مسموع ، جرى نحو مصدر الصوت يحمل فى يده مصباح الكيروسين الكبير ، وجد سندلوبه يرقد على الأرض ، يلفظ أنفاسه الأخيرة ، يحفر الأرض عميقاً بأظافره ، إمتلأت قبضة يده المضمومة

تراباً . يرقد على ظهره وسط بركة كبيرة من الدماء التى صبغت صــدره ، هنالك فجوة غائرة ضخمة فى وجهه تبدأ من تحت أنفه المحطم حتى جبهته. شوهت معالمه تماماً .

تناثرت على الأرض بالقرب منه عظام جبهته أجزاء من مخه ، إختلط التمباك بالدماء ملأت فمه ،تندفع من مكان الجرح نحو الأرض شلالا احمراً له خرير .

قبل أن يسرع الدنقلاوى نحو القرية مولولا فى فزع يطلب النجدة رأى قرب سندلوبة حلقة ضخمة من الحديد الصلب ،هى إحدى حلقات عجل المقطورة الكبير طارت فى الهواء بسرعة هائلة بعد أن خرجت من مكانها تحت ضغط جوالات القطن الهائلة ، وحمولة المقطورة الزائدة انفلتت طارت فى اللحــظة التى حــازت فيها سندلوبة وهو يضحك عالياً مردداً بصوته الجهورى فى مرح مغمضاً عينيه .

: الجعلى عليك الله أقيف ، شوالين تلاته أبيعهم أصلح بيهم حالى أقيف ياجعلى الجن .

الدرس الاخير للبصيرة أم حمد

صباح يوم شتوى بارد . رفض (الضو) أن يحضر الماء من النهر . ضربه أبوه بفرع حناء أخضر حتى تورمت مؤخرته .هرب على ظهر أول عربة تجارية قادمة من (الجبلين) فى طريقها لكوستى . رق له قلب السائق . قال أنه يريد أن يلحق بوالدته المريضة . والده رجل طويل. أنفه سائلة على الدوام . إشتهر بالتهور وبعض العبط .قال يجوع يجى راجع . والدته أنجبت غيره عشرة أطفال . نحيفه عجفاء .تبكى لأقل سبب حتى ولو عثرت قدمها بحجر فى الطريق العام .بكت ماشاء لها الله . إستدانت خمسة قروش قدمتها نذراً للشيخ أبو علامة حمراء .

ناظر المدرسة الأولية تنفس الصعداء عندما سمع بخبر هروبه . قال أن المدرسة إرتاحت من بلا كبير .

لم يعد الضو ، فلا الجوع عضه ، ولا بركة الشيخ أبو علامة حمرا إستطاعت أن تمنعه من إمتطاء ظهور العربات التجارية ، مساعداً بارعاً للسائق . إتصف بالقوة والتحمل والذكاء . فى العشرين من عمره إستطاع بطريقة غير شرعية أن يتحصل على رخصة قيادة عربة تجارية . رجع إلى كوستى . عمِل سائقاً لعربة أوستن جديدة ،مقدمتها بيضاء مثل اللبن تشبه كلب الصيد الأصيل كتب على جنبيها بخط عريض وباللون الأحمر (يالحاق بعيد) و(الحنينة السكرة)

إشتهر الضو بالبراعة فى القيادة ، فى الخريف عندما يصدر المجلس الريفى منشوراً يعلن فيه أن الطرق البريه لم تعد صالحة للسير ، تجد عربة الضو تشق كل يوم سهول الطين اللزج ، تمتطى الحيران الوحلة بين كوستى والجبلين . كوبرى ربك القديم الذى يعتبر امتحاناً عسيراً للسائقين يعبره الضو فى دقائق معدودة .. مرح . يحب الأكل الدسم . يتحدث

بصوت عالى . بدين عريض الصدر .(يلبس جلبابا من الدمورية ملطخ بالزيت . رأسه عارية إلا من طاقية (منسج) .

إتخذ له عشيقة أثيوبية فى ربك .

ولأنه يدعى معرفة كل شىء . فقد أطلق عليه زملاؤه لقب (البصيرة ام حمد) . شىء واحد ينرفز الضو ويثير أعصابه ، سائقوا العربات الحكومية يعتبرهم (أفندية) ودخلاء على المهنة .يعتقدون أنهم من طينة أخرى غير طينة السائقين . (سواقين بتاعين دركسون ساكت) الواحد لو ما بقدر يفرتق العربية حتة حتة ،يصلحها براه ، ده ما إسمه سواق .

عندما يقابلهم فى السهول والطرق المنبسطة ،يبذل كل جهوده ليتخطاهم ، وهذا ليس بالأمر العسير على عربة (أوستن) جديدة ، يستجيب حديدها لسائق ماهر مثله ، كيف يمكن لعربات الحكومة التى أكل عليها الدهر وشرب أن تلحق بعربة جديدة . ينفلت أمامهم بسرعة الريح تاركاً وراءه شريطا طويلا من الغبار الكثيف الممتد لمئات الأمتار . يخرج رأسه من كابينة القيادة ويخاطب مساعده (جون) قائلا ، وصوته يغالب الريح ضاحكاً :

:شن بلم القمرى مع السمبر ياجون .

عربة واحده لم يستطع أن يتخطاها حتى الان ، يجرى خلفها حتى تنقطع أنفاس عربته ولا يلحق بها (اللاندروفر الصالون) ذو السته سلندر والتى تتبع منظمات هيئة الأمم المتحدة فى السودان . أكثر من مرة فكر أن يترك العمل بالعربات التجارية ويعمل سائقا عند الحكومة . شريطة أن يقود عربة مثلها طول عمره ، يفعل بها الأعاجيب .

أحد الأيام القائظة رآها تقف قرب محطة السكة الحديد فى ربك كان يحتسى الشاى الحار بالنعناع الأخضر فى المقهى . تسارعت دقات قلبه فى عنف . ذهب حام حولها .

ضربها بكف يده العريضة فى جنبها الأيمن . رن صوت حديدها

المصفح مثل صوت نحاس أصيل . عاد أدراجه جلس بعد أن ملأ شفته السفلى بكمية كبيرة من (التنباك) بصورة مرتجلة . أحد الجالسين فى المقهى لعله من السائقين الجدد على المهنة ، قال دون أن يسأله أحد .

: الأندروبل زمانه فات . دلوقت العربات هى التايوتا ولا بلاش . اليابانيون دلوقت عندهم حديد كويس .

الضو ركبه شيطان التحدى . كيف يرد عليه سائق ، يبدو من هيئته ومن كلامه أنه جديد على المهنة ويشبه سائقى العربات الحكومية .

ـ كلامك ده كلام زول ماعنده أى فكرة عن العربات .

: يا أخوى ديك عربيتى . السفنجة الواقفة ديك .

ـ والله لو يبقى عندك أسطول .. ماعندك أى فكرة عن العربات هو أى واحد ممكن يبيع ليهو بقرتين ويشترى عربيه يخت فيها واحد زيك ....

بلع السائق الآخر قليل الحجم الإهانة ، حمى وطيس النقاش إنقسم رواد المقهى الى قسمين . جذبوا مقاعدهم تجاه الضو والسائق الآخر . علا صوتهم بات يسمع بوضوح فى الطريق العام .. السائق الآخر يقول أن العربات التويوتا عربات جيدة لكنها لم تتعود على طقس السودان بعد .. (الميكانيكية) لايفهمون طبيعة محركها ، والإنجليز يعرفون طبيعة هذه البلاد ... لهذا عدلوا فى عرباتهم لتتلاءم مع طرقها

الضو يقول أن هنالك عربات من بلاد أخرى غير بلاد الإنجليز تعمل جيداً فى السودان وتنافس العربات الانجليزية . ويهاجم التايوتا ، وشها خفيف وممكن حجر صغير يقلبها .. حديدها مامربط كويس ... طرمبة البنزين بتسخن بسرعة ، لكن تعالوا شوفوا الأندروبل مكنه تمام تقوم من ملكال ماتقيف إلا فى الكوة ، زى الساعة وتعيش أكثر من سيدها.

عند ما حمى وطيس النقاش ، حسمه الضو بطريقة إستفزازية .. ياجماعة الخواجات خشم بيوت ، يعنى عايزين يابانيين بتاعين ايه ياأخى ، الإنجليز ديل خواجات جد جد ، تقولوا لى إنو اليابانيين زى الإنجليز .

اليابانى طول كراعى دى كيف يعمل عربية زى الإنجليزى الطوله مترين
الإنجليز ديل هــزموا إمريكا ذاتها فى الحرب ، انتو بتلعبوا ولا شنو
اليابانيين ديل خواجات درجة ثانية ..

لم ينتظر ردهم بصق سفته الكبيرة ، تحرك متجهاً نحو السوق هدأت
النفوس . ساد المقهى صمت عميق وذلك عندما ظللت السماء سحابة
هائلة غطت كل مدينة ربك ،تنقض من السماء نسور جائعة .. هدير
العربات التجارية فى السوق كصياح الوعول البرية فى الليل الموحش ..
فنان مبتدىء ظل يزعق فى جهاز الراديو أكثر من عشر دقائق يشكو
من الحب الذى أدمى قلبه .شاب طويل نحيل يبدو عليه الضجر قال ..
: بالله ناس الخرطوم ديل مش فايقين وماعارفين اليسوو ،هو فى زول
قلبه بيوجعه عشــان بت ..

قام متجهاً خارج المقهى مردداً كلمات كلها سأم وإحتجاج ، شيعته
ضحكات رواد المقهى وتعليقاتهم قائلين إن مثل هذا الشخص يمكن أن
يتشاجر مع ظله . السحابه السوداء تجر أذيالها نحو الشمال البعيد . الزرازير
الجائعة النشطة تطير صوب البحر . أسراباً .

فى موسم (لقيط) القطن ينتشر جزء كبير من العرب الرحل فى
منطقة النيل الأبيض ، فى مناطق المشـــاريع الزراعية ؛ بل يذهب لهم
السماسرة حتى أماكن تجمعهم فى شركيلة والعباسية ودار حمر . يأتى
إلى هنا حيث الماء أيضا والعشب . وأعراب من كل جنس ولون . حوازمة
بنى هلبة هبانية . تظل العربات التجارية طوال موســم اللقيط تنقلهم
ومتاعهم مابين شرق وغرب النيل ليستقروا بين المشاريع الزراعية ، من
الرنك جنوبا حتى الكوة شمالا ، تنقل العربات متاعهم .خيامهم المتنقلة
كلابهم ، أغنامهم ، ومن جهة أخرى تنقل جوالات القطن إلى المحالج
القريبة .. إنه أكثر المواسم إرهاقا للعربات والسائقين ،الذين يغالبهم
النعاس أحياناً وهم جلوس خلف عجلة القيادة .

نهاية الموسم ، كان الضو ينقل (فريقاً) من الأعراب من غرب النيل إلى شرق النيل بطريقته البارعة المعروفة عبركوبرى ربك العتيق صعب المراس فى دقائق معدودة متجها إلى كوستى . يمخر عباب الارض المنبسطة الطريق قامت بإصلاحه جرارات الطرق الضخمه .يبدو منبسطا متساويا حتى الأفق البعيد .. سكان القرى الصغيرة التى تقع مابين ربك و كوستى يعرفون عربة الضو جيدا كما يعرف كل منهم أصابعه الخمسة .. بالقرب من مروحة الموتور ربط بطريقة خاصة علبة طعام محفوظ فارغة .. عندما يعدل سرعة العربة ويمتلىء قلب الموتور بدفعات جديدة من البنزين ، تصدر العلبة الفارغة نتيجة لإندفاع الهواء بسرعة عالية انيناً محببا للنفس تردد صداه الرياح ، تنقله لمسافات بعيده . الأطفال يخرجون إلى الطريق العام ملوحين بأياديهم فى إعجاب – الرجال الجالسون يجدلون حبال السأم النهارى ، يهزون رؤوسهم قائلين (الشىء جان ، لاحول ولاقوة إلا بالله المصيبة ده قبال الفطور ما جا ماشى على جهة ربك) .

عند منحنى قرية (ن) التى تقع قرب الطريق . لمح الضو الفتاة ذات الزمام الكبير ، والجسد الفائر – الضفائر التى تلمع مع الشمس ، تنتظره عند المنحنى ، كما تفعل كل مرة بعد أن تسمع أنين عربته القادم من بعيد . للحظات قصيرة رمته بسهام عينيها . إختفت وسط أكواخ العشب الرمادية المتداخلة . إنطلق يطارد الطريق المعبد . قلبه إمتلأ شجناً . الطريق يمتد منبسطا مغرياً . اندفعت العربة تنهب الطريق مثل مارد حديدى جبار . يتردد عويلها إلى النفوس إنها سيمفونية السرعة .. تصايح الأعراب فى العربة فرحاً .. فهم أيضا يحبون العربات السريعة ..بل يغنون لها .. إمرأة عجوز عمياء ، خيل لها انها صيحات الحرب والصدام زغردت زغاريد طويلة . أغمض الضو عينيه لثوان قليلة تخيل الاعرابية ذات العيون الكبيرة عارية بين زراعيه فى بيت الحلال .. تفوح منها رائحة الدخان والدلكة . بعد موسم اللقيط فى نهاية هذا الشهر .. سيأتى

ويسأل عن أهلها ويأخذها لبيت الحلال .. انتشله صياح الأعراب من أفكاره . يطلبون المزيد من السرعة . من بعيد مدت أبراج كنيسة كوستي ومئذنة جامع المدينة الكبيرة أعناقها وغرزتها فى صدر السماء .زاد من الضو من سرعة العربة . أخرج رأسه الحليق من كابينة القيادة .قاوم صوته الرياح . سأل مساعده (جون) هو شاب أسمر طويل من أبناء الجنوب يجلس على سقف الكابنية .

: جون العجاجة قامت ؟

إلتفت جون إلى الخلف لم يعجبه شريط الغبار الذى تتركه العربة خلفها يجب أن يكون طويلا ممتدا لمئات الأمتار .كثيفا يحجب الرؤية ، قال بصوت يغالب الريح :—

: لسه ما قام يا اسطى .

زاد الضو من سرعة العربة .. أنت توجعت ، إندفعت مثل صاروخ مجنون .بعيداًفى القرية خفق قلب الأعرابية الحسناء. لمحت عربة الضو تبتعد. كأنها تطير فى الهواء أغمض الضو للحظات عينيه . وضغط بأصابعه يجلس أمام عجلة القيادة منذ الرابعة صباحا عند ما تطير العربة يصبح جزءا لايتجزأ منها . . قطعة من الموتور . يحس كأن حركته تجرى فى دمه وأنه يستمد حياته من وقودها . يشم رائحته فى راحة وحب . شعر بأن عجلة القيادة تهتز فى يده . فتح عينيه . حادت العربة عن الطريق قليلا شىء عادى ويحدث كثيراً . تمهل قليلا ، خبرته طويلة . لم يحاول إيقافها وهى تطير بسرعة الريح ، تركها تجرى . أخذ يقلل من سرعتها شيئاً فشيئا ويعيدها للشارع المعبد ، لكن لحظه العاثر إصطدمت بجذع شجرة مدفون فى الأرض . قفزت فى الهواء كأن هناك يداً جبارة دفعتها من الخلف . تقلبت على الأرض عدة مرات . إستقرت على جنبها وسط كومة كبيرة من العشب . عجلاتها تدور . . تحوطها دائرة من الغبار . يتصاعد الدخان الأسود من مقدمتها . أعرابية عجوز كانت تجمع الحطب ، جرت إلى

القرية تنقل الخبر. ظلت العربات المتجهه إلى كوستى حتى بعد العصر تنقل الموتى ، والجرحى . الضو حطمت عجلة القيادة صدره وشوهت وجهه تماما ، جون المشخن بالجراح أخبرهم باسم صاحب العربة ، فى كوستى وفمه ممتلىء دما .

الاعرابية المسنة التى شهدت الحادث جلست قرب نسيبها بعد صلاة العشاء . تحكى له مارأت وهى تصفق يديها عجباً . (والله الناس والبهائم والعفش يتطايروا فى الهواء زى الدلاقين وهى . . تنقلب وتنطح فى الهواء. شىء جنس ده أنا عمرى كله ما شفته .)

يمسح ذقنه الصغيرة بيده مدعيا الوقار والحكمة مرددا . (قلتى كيف لا حول ولا قوة إلا بالله ، الناس يتطايروا فى الهواء مثل الدلاقين .)

جارة بعيدة تكن لها قدرا كبيراً من البغضاء حادثت إبنها قائلة : : أصله أم الحسين عينها حاره لو شــافت أى حاجة تجيب خبرها . ماكلنا قاعدين نجيب الحطب وقاعدين نشوف العربات . ياتو يوم جبنا خبراً كعب أنا ما جاتنى يوم ومرقت من البيت إلا حرقت وراها بخور تيمان .

صاحب العربة التاجر فى كوستى . أصيب بمغص حاد عندما سمع الخبر . الاعرابية التى تداعب الضو بعينيها . نامت تبكى دون عشاء . قام الأطفال فى الظلام برحلة سرية للعربة حيث ترقد مثل ديناصور ميت . صاحب العربة توقفت بطنه من الجريان عندما وجد أوراق التأمين الشامل . فى القرية قال بعض الشبان المتجمعين حول زجاجة عرقى ، إن الضو مات ميتة فارس مغوار ، هبت ريح ليلية على الأكواخ . قبعت بعض النســاء يكحن متقرفصات على حفر الدخان . صاحب العربة قال لزملائه التجار الذين جاءوا ليستفسروا عن الحادث : عوجة مافى أنا عندى تأمين شامل وبعرف ناس الشركة كويس .

حملت الريح الليلية حتى النهر البعيد رائحة اللبن . عصيدة العشاء ، الثريد . عند النهر حيث تقف قوارب صائدى الأسماك تحت الكوبرى

العتيق ، إختلطت روائح القرية برائحة طين النهر . وزهور أعشاب البانقيقة ونبات البردى . وقتها تنفس النهر المتوحش بعمق . إستنشق كل ذلك الخليط السحرى العجيب حتى إصطخبت أمواجه تحت الجسد الهرم الصامد الذى أصبح قطعة من الليل .

الجنة تستطيع الانتظار

كالحلم ، الطيف ، الخيال ، البعيد ، البعيد ، البعيد ، رأى وهبة نفسه محـاطاً بفتيات جميلات الأعين ، يرتدين ملابـس بيضاء تكشف عن سواعدهن البضه اللامعة ، سيقانهن المكشوفة حتى ما تحت الركبة ، يمشين فى هدوء يحملن صحائف مصقولة من فضة ، يدرن حوله ، يتهامسن . سرعان ما ينفرط عقـدهن . جال ببصره فى الغرفة من حـوله . جدرانها بيضاء بلون اللبن ، يرقد على سرير أبيض ، مغطى بملاءات بيضاء ، دخلت الغرفة امرأة بيضاء (خواجية) ، فارعة الطول ، شعرها بلون الذهب ، مثل اللائى كان يراهن فى السينما ويعلق صورهن فوق سريره ، ويحلم بهن أيام المراهقة ، تحدثت معه بلغة لم يفهمها . تسللت إلى عقله فكرة بسيطة ولكنها مؤكدة ، هذه هى الجنة يا عبد الوهاب ، سعيت لها بأيمانك وصبرك ،أولئك هن الحور العين . يحطن بك إحاطة السوار بالمعصم . تبعتها فكرة أخـرى ، أن يقوم الآن من سريره ويذهب إلى نهر الخمر الذى يجرى فى الجنة ، يغترف منه بيديه حتى يرتوى ، يعب عباً ، يغطس ، يعوم فيه ، يعود للحور العين ، يأمرهن بالغناء ، الرقص السمر ، مثل (البلابل) . الليلة تنام معه الخواجية ذات الشعر الذهبى ، غداً يختار واحدة من هؤلاء الأبنوسـات . شعر بفرحة غامرة . أراد أن ينهض من سريره ، وهو يردد بصوت خافت مرتجف ، متلهف .

: الحور العين ، الحور العين ، لطفك يارب ، لطفك يارب ، الجنة ياعبد الوهاب ، عبد الوهاب الجنة ، مبروك عليك ، رحمتك يارب ، الحور العين ، بنات الحور ، يا عبد الوهاب .

لم تطاوعه قدماه ، ولاساعداه على النهوض من السرير . شعر بآلام رهيبة فى كل جسده . فكر . ربما كان هذا حال الذين يدخلون الجنة فى البداية من يدرى . وطيف بنات الحور ، وصور أنهر الخمر ، اللبن ، العسل

تجول بذهنه ، نادى بصوت خافت إحدى بنات الحور تساعده على النهوض من السرير ، لتقوده عبر طرقات الجنة وحدائقها ذات القطوف الدانية .
: يا حورية هوى ، بت الحور ، بت الحور ، تعالى ، تعالى هنا .
سمعته ، جاءت تتهادى ، وعلى شفتيها إبتسامة أحلى من كل إبتسامات عذارى الدنيا الفانية . وضعت يدها على جبهته . بصوت الأنثى الحلو الأخاذ قالت له :
: حمد الله على السلامة
تأكد أن أفكاره صحيحة ، وتهنئتها له بسلامة الوصول . تؤكد أنه حقيقة يتواجد الآن فى الجنة . رقص قلبه فرحاً .
: إنسلت مسرعة من الغرفة . عادت ومعها رجل يلبس ملابس بيضاء تعجب عبد الوهاب عندما قال له الرجل .
: كل شيء بيد الله ، إن شاء الله تشفى بسرعة ، إحنا بنعمل العلينا ، لكن الشفاء من عند ربنا .
كيف يقال له مثل هذا الكلام فى الجنة . تذكر آلامه المبرحة من أين أتت ولماذا ، فكر من جديد ، إن المؤمنين العصاة ، يكفرون عن ذنوبهم وخطاياهم فى النار ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة . ربما كانت الآلام التى يشعر بها من آثار النار ، وهو يرقد الآن فى المستشفى الملحق بالجنة للعلاج من آثار جهنم التى قضى فيها فترة تكفيراً عن خطاياه فى الدنيا ، تحسس لسانه بأسنانه ، عله يجد آثار الخطاطيف التى يعلق عليها الكذابون من ألسنتهم قضى سنوات طويله ولسانه يعربد ببذىء الكلام ، قبل أن يتوب . أكيد أن الرجل طبيب (ملاك) مسئول عن المستشفى . أغمض عينيه للحظات . راح فى إغفاءة داهمته دون أن يشعر بها . كالطيف . كالحلم كالخيال البعيد، إختفت صور بنات الحور من عينيه رويدا رويدا .

• • •

أنهى عبدالوهاب دراسته الوسطى بعد مشاق كثيرة نتيجة غباء ورثه عن والده . كان شقياً عنيداً . تقول والدته أنه لم يخلق ليمسك يده بالقلم ،

ترتيبه دائماً فى المؤخرة ، زاد الطين بله أنه عرف الطريق إلى (سينماكوستى) التى افتتحت وهو لايزال حدثاً . اشتهر بنوادره التى تتسم باللامبالاة . وتقليد أبطال السينما ، أطلق عليه أبناء الحى اسم (زوزو) فى المدرسة ، يكلف دائما بأداء المهام التى تتطلب قوة جسدية ، يبدو بقامته الممتلئة . وسط التلاميذ الصغار ، مثل أخ أكبر منهم . عندما فشل فى الإلتحاق بالمدارس الثانوية ، ساعده صديق لوالده فى الإلتحاق بعمل كتابى بسيط فى إحدى الشركات التجارية . استغل راتبه فى ارتكاب المعاصى ، يتواجد دائما فى الأماكن التى تعتبر (مناطق نفوذ كل أنواع الشياطين) ، لايفيق من السكر يعيش حياة عربيدة . نبذه والده . إعتبره ميتاً ، حلف (طلاق بالتلاتة) أن لايتحدث عنه أحد أمامه . استجاب الله لدعاء أمه العطوفة .

(جاء إلى المنزل فى أحد الأيام باكيا تائبا . جثا على ركبتيه يبكى أمام والده . قال الوالد .

: دى دموع تماسيح ساكت . الغلاء والحياة الصعبة أجبروه على التوبة

إزداد بكاء عبد الوهاب بل (جعر) بصوت عال حتى سمعه الجيران ، رفض أن ينهض من الأرض ، لم تلن لوالده قناة . قال :

: التوبة البعرفها أنا يتزوج بت عمه الليلة وما باكر كمان .

تم كل شىء فى أسبوع واحد . لم يدفع مليماً واحداً من جيبه . تكفل والده بكل شىء . تقاذفته أمواج الحياة الصاخبة يميناً ويساراً . استقر فى مسكن صغير شمال مدينة كوستى فى حى (المغفل سكن) . له ثلاثة أطفال وزوجه مسكينة أليفة ، مثل القطة المريضة ، لاتفتح فمها طول اليوم ، تغسل ، تطبخ ، تنظف ، بل وتنام معه مثل الإنسان الآلى . تبقى له من حياته الماضية قدر من بدانة ملحوظة ، كرش كبيرة يحملها بعناء أمامه . وجه متعب . عينان غائرتان ، مستسلمتان . رأسه هاجمه الشيب بغزارة .

• • •

قال الطبيب الشاب للممرضة وهو يضغط على جبهته

: عمليتين كبار ما حاجة ساهلة ، لكن أنا برضو متفائل لأن صحته كويسة

: إحنا غايتو ملازمنه طوالى وقاعدين نسجل كل حركة زى ما قلت

: إهتموا بحركة أطرافه ، مقدرته على الكلام ، ما حنقدر نعرف كل شيء لو ما أفاق من الغيبوبة بصورة كاملة .

: حاضر يا دكتور .

صمتت لحظة . . . . . قالت :

: الليلة ناداني قال لى يا حورية ، يابت الحور وضحكنا سوياً

* * *

قضى عبد الوهاب الشطر الأكبر من نهار ذلك اليوم يبحث عن الزيت ، الخبز ، إشترى لحمة رديئة بأكثر من التسعيرة ، لم يجد الدواء الذى وصفه الطبيب لطفله الصغـــير ، مصاب بإسهال لم يفارقه منذ أكثر من شهر ، إستجدى أحد معارفه من التجار ليقرضه بعض الدمورية للزى المدرســى الجديد . والده ضعف بصره ، بارت تجارته ، والدته شاخت قبل الأوان ، يسكنان معه ، الوالد يصيح طول النهار ، لانهاية لمطالبه ، مدير الشركة أنذره بالفصل لأنه يتغيب كثيراً .

: لكن أنا والله قاعد ألِف أكوس الأكل لأولادى

قال المدير إن كل هذا لايعنيه (إن شاء الله يأكلوا حصحاص ، هو القال ليك ألِدى منو ، والناس التانين ما عندهم أولاد ! ، ليه ما قاعدين يتأخروا؟ المرتب لايكفى . وهو لايجيد أى حرفة يزيد بها دخله . رقم ديونه يرتفع بين كل يوم وآخر ، اليوم حاول أن يستدين من زميل له فى المكتب ، إعتذر له فى ضعف وحده (والله أنا ذاتى كايس البسلفنى) . إشتهر بأنه يراوغ فى أول الشهر ولايرد الدين .

إنه محاصر ولا أحد يساعده هذه حاله منذ شهور طويلة ، المرتب لايكفيه لأكثر من أيام معدودات ، لايجد قوت أولاده ، عندما تأتيه أحياناً فورة شجاعة ، ويحاول مجادلة القصابين والتجار ، ويصــر على الشــراء بالتسعيرة الرسمية يرفضون البيع له ، يتعللون بعدم وجود مايطالبه ، يشترى المواد التموينية بأكثر من التسعيرة ، فى السوق السوداء .

اليوم بداية الاسبوع الثانى من الشهر . آخر خمسة جنيهات فى جيبه
والده يريد بطيخه ثمنها جنيهان لن يشتريها ، سيتحمل زعيقه بأنه رباه ؛
ويجب عليه أن يرعاه فى كبره . المسافات التى قطعها بين متاجر سوق كوستى
على قدميه يمكن أن توصله حتى (ربك) . فرح اليوم فرحا شديداً، وجد
بعض الملح والكبريت والسكر وحتى (حجارة البطارية) ، حافلات (الحلة
الجديدة) مزدحمة مثل علب الساردين . لامكان له . يداه محملتان(بأكياس)
اللحمة والخضار لايستطيع أن (يعافر) . شمس منتصف النهار تصطاد
الناس واحدا واحداً . خيل إليه أنها تقف فوق رأسه ، وعلى مسافة قريبة
جدا . إنساب العرق غزيرا من رأسه حتى وصل كرشه وبلل قميصه ، بعد
جهد جهيد وجد له مكاناً فى عربة (تايوتا) نصف نقل . بلا مقاعد .
بلاسقف مخصصة لنقل البضائع . يقودها فتى مراهق وفد حديثاً إلى كوستى
كان راعيا . إنطلقت نحو (الحلة الجديدة) تسابق الريح . غرق عبد الوهاب
فى أفكاره وهمومه . سينام قليلا . بعد الغداء . سيذهب إلى إجتماع الطريقة
البرهانية . أقنعه صديق بأن ينتمى لها بقلبه وعقله . أطلق لحيته . بشاربه الكث
ورأسه الاشيب ، يبدو بالفعل أكبر من عمره كثيرا . ولأن الحياة تسحقه
بالفعل . يفكر دائما فى الراحـــة الأبدية ، وفى الجنة والثواب فى الآخرة

ويتمنى أن يجد له مكانا فى الجنة مع الصالحين ، عندما يتذكـــر
ماضيه القديم ، وتاريخه العربيد تنتابه قشعريره ويردد فى إبتهال ان الله
غفور رحيم بعباده ، رحمتك ، غفرانك يارب العالمين .

توصل بينه وبين نفسه إلى قناعة تامة ، بأن شخصاً يعيش مثل حياته .
ويتكبد المشاق التى يتكبدها . يجب أن تكون الجنة مثواه الأخير لامحالة .
سيغفر الله له ذنوبه . ويدخله الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار . أصبحت
هذه الأفكار تسيطر عليه تماماً نتيجة للظروف المادية والعائلية التى يعيشها .
أثناء سير العربة غرق . فى لجة الأفكار الدينية المحببة لديه . لولا (أكياس)
اللحمة والخضار التى تثقل كلتا يديه لأخرج مسبحة . إكتفى بالتسبيح بلسانه

فقط . نسي وجوده على ظهر عربة (تويوتا) والشمس التى تصطاد رأسه . بلله العرق كأنه خارج من الحمام لتوه .

عبرت العربة خط السكة الحديد المتجه إلى غرب السودان والذى يفصل المدينة إلى قسمين . إمتطت ظهر الشارع الاسفلتى الذى يقسم الحلة الجديدة إلى قسمين كبيرين . كأن هنالك شيطان مجنون يقودها . حاول السائق الفتى غير الخبير أن يتفادى معزة إندفعت فجأة تريد أن تعبر الطريق سيطرت عليه أفكار (الراعى) القديمة الحيوان له قيمة كبيرة . ونسى البشر الذين يتكدسون داخل صندوق العربة خلفه . ففقد السيطرة على العربة . إنقلبت . إصطدمت بعامود ضخم من الأسمنت المسلح على جانب الطريق عبد الوهاب كان أحد الذين أصيبوا بجراح خطيرة . لحظتها كان (يسبح) طار فى الهواء مثل جوال ملىء بالحشائش الجافة . طارت معه أكياس اللحمة الخضار ، السكر العزيز ، سقط على كرشه المكورة ، تدحرج بقوة على الأرض ، تأكد له أنه ميت لامحالة . كانت آخر الأفكار التى جالت بذهنه، الجنة والنار ، فحياته لها شقان ، بل عاش حياتين ، حياة مليئة بالمعاصى ، والاخرى بالتقوى والايمان . تشهد وهو يتدحرج على الأرض حتى إصطدمت رأسه بالأرض . تمنى أن يكون مقامه فى الجنة فى الحياة الآخرة . قبل أن يغمى عليه إبتهل إلى الله أن يجد نفسه فى الجنة مع الصالحين عندما يفتح عينيه مرة أخرى . . .

برق عبادى

انهكنى السفر والتجوال . قضيت سنوات طويلة أدرس خارج الوطن. عدت لمدينتى ، علنى أجد بعض الراحة ، قبل أن أبدأ مشوار الحياة العملية الطويل . إرتميت فى أحضان الذكريات القديمة . نسيتنى المدينة نسيتنى كوستى . أمسح الشوارع والازقة . أفتش بعينى عن وجوه أعرفها .الأماكن التى طبعت عليها بصمات طفولتى . هنا إصطدت عصفور (الكنار)هنا عاكست النيجيرية بائعة (الفول المدمس) . هنا كنا نلعب (شليل) فى ضوء القمر . إيقاع الزمن الطفولى الصاخب ، داومة الشوق إلى الماضى ، عنفوان تاريخ الأصحاب . لم يعد يعرفنى أحد . أقطع الطريق من منزلنا فى (حى المرابيع) حتى السوق القريب مرتين كل يوم . عل أحد يعرفنى يناديني بإسمى . يضمنى بشوق . يربت على ظهرى . ينفض عنه غبار السنوات الطويلة فى الغربة . تتقلص أيام عطلتى القصيرة . أقضى يومى بين الكتب فى مكتبتنا المنزلية القديمة . أستمع بحب لذكريات أمى وحكاياتها التى لاتنتهى عن الناس والأحداث . حكايات المدينة فى سنوات غيابى .

حكيت لها أن عبد الخير لم يعرفنى جيداً ، لكنه يبدو مريضاً جداً . مرت سنوات طويلة ، له العذر . كبرت ، تغير شكلى تماماً . حتى الناس الأصحاء نسونى . فما بالك برجل مريض ، منحنى الظهر . لايكاد يرى جيدا . أغرب ما فى الأمر أنه توقف عن السير عند ما لمحنى أقف أمام باب منزلنا . إستدار ببطء تقدم نحوى يدب فى الأرض حتى وصلنى . قال فى صوت خافت متهدج

: متين جيت ، ماكنت عارف . حِمد الله على السلامة . سلم على أمك .

لم يزد كلمة واحدة ، نسى حتى إسمى . إستدار . واصل سيره المضطرب . خطواته المتعثرة . قالت :

لسه بيتذكر الناس ، راجل ما بنسى العشرة . والله كل الناس متأسفة للحصل ليه . لكن دى إرادة المولى عز وجل . هو كمان السبب فى الحصل ليه ده ، الشى السواه يوم (المطره أم بروق) مافى زول سواه قباله فى الدنيا .

إستغفرت أكثر من مرة . طلبت الرحمة والغفران من (خالـــق العالمين) خصوصا وأن الخريف على الابواب . فقد بدأت طلائع طـير (السمبر) تحط على قمم الأشجار . أسطح المنازل .

تبنى أعشاشها .

قلت : وهو فى مطرة ببروق ومطرة ساكت ، ماياهو كله مطر .

قالت : آى ديك مطرة ، الله لاجاب زيها تانى .

كانت كتائب السحب تنذر بخريف غاضب . أول من شعر بقرب هطول الأمطار هم الرجال المسنون . إلتقطت أنوفهم الخبيرة ، رائحـة أعشاب الفيافى الجافــة التى بللها المطر ، والنــدى المبكر . رائحة الأرض المتعطشة لقطرة مياه . فى البداية إنقادت السحب طائعة . لأذرع الريــاح القوية التى كانت تدفعها أمامها تجاه الغرب . أحياناً تغطى قرص الشمس ، تحجب الضوء عن المدينة فى وضح النهار . تدمدم برعد مكتوم ، تمضــى هادرة ، أحيانا أخرى تحاصر المدينة ببروقها الليالى الطويلة . تغازل المساء . تستقبل الصباح برشاش ناعم .

كان أبى من أوائل الرجال الذين شعروا بإقتراب هطول المطر ذلك اليوم . نهار ذلك اليوم البعيد . أقفل متجره على عجل . هرول إلى المنزل . سأل عن اخوتى الصغار . تأكد من أن المنزل به القدر الكافى من الكيروسين والمؤن الغذائية . أثناء جمعه لبعض التراب وقطع الطوب الاحمر . سألته والدتى ، لماذا يقوم بحفر تعميق الجداول والخريف (لسه بعيد) رددت : إن شاء الله خير ياود الحاج ، ما تشفق ساكت .

أخذها من يدها . أشار إلى السماء جهة الجنوب الشرقى . بعيداً فى الافق ، وفى وضح النهار . تتقدم ببطء سحابة سوداء هائلة . يسبقها برق

صغير ، يضييء أمـــامها كشرارة كهربائية . إنه رســـول العاصفة .
: الليلة البلد دى حتغرق ، أنا لى أربعين سنه فى كوستى جنس العبادى دى ما شفته ، الله يستر علينا ساكت

صعد إلى سطح المنزل . تأكد من أن كل (السباليق) جيدة . تحسر لأن كل أولاده الكبار غائبون عن المدينة . التى وصلتها السحابة السوداء . حجبت عنها ضوء الشمس النهارى فى لحظات . أصبح النهار كبداية الليل تماما . هرول الناس مسرعين إلى منازلهم . و الموظفون والعمال فى إدارة وورش السكك الحديدية والميناء النهرى . إندفعوا هاربين إلى منازلهم البعيدة فى (حى النصر) و (الحلة الجديدة) خرجت النساء نائحات يبحثـــن عن أطفالهن ، تعالى نبيح الكلاب ، صياح الحيوانات الاليفة . إهتاجت . تحول السوق الذى يتوسط المدينة إلى خلية من الحركة المضطربة ، كأنما هنالك عدو مجهول يهاجم المدينة . السحابة الهائلة السوداء . أطبقت قبضتها أكثر فأكثر على كوستى . إقتربت من الارض ، حتى يخيل إلى أى شخص أنها بدلا من أن تهطل مطراً ، ستحط على أسطح المنازل المبنية من الطين ، والطوب الأحمر . . وأنه لو رفع عصاه لانغرزت فى ضبابها الهلامى . هبت رياح هادئة . كنسيم الصباح الشتائى . إشتد هبوب الرياح . عزفت فروع الاشجار ألحاناً . برق خاطف ، تلوى ، تعرج طويلا ، تفرعت منه عدة بروق . كأنه يريد أن يحرق المدينة . مضى تاركاً ساحة السماء لرعد رهيب . زمجر حتى إهتزت نوافذ بعض المنازل . إختبأ الاطفال الصغار تحت الأسرة باكين .

كانت هذه بداية المطر الذى أصبح تاريخاً . بدأ يهطل . قطراته لها وقع مسموع على الارض . قطرة الماء فى حجم قطع الحصى متوسطة الحجم موظف التلغراف قبل أن يهرب من مكتب البريد مع بقية الموظفين . أبلغ الخرطوم والمدن القريبة ، أن كوستى تجتاحها عاصفة مطرية ، وأنه لن يضحى بحياته جالساً قرب جهاز التلغراف . موظف اللاسلكى ، بإدارة السكة الحديد ، أبرق المحطات القريبة من كوستى . طلب إيقـــاف كل

القطارات القادمة إلى المدينـــة ، وهو ينظر بقلق تجاه الامطار التي تغطي الارصفة ، سكان القرى القريبة من كوستي . ربك ، الجزيرة أبا ، أم هاني نظروا بقلق تجاه منظر الامطار الهابطة من السماء ، والذي لا يخفى على العين الخبيرة . قالوا أن كوستي (هلكت) .

استسلمت المدينة لمصير غير معروف . ذكر راديو أمدرمان في نشرة أخبار الخامسة مساء . أن مدينة كوستي تتعرض لأمطار غزيرة ، وعواصف رعدية لم يسبق لها مثيل ، وأن كل الإتصالات مع المدينة مقطوعة الآن ، وكذلك خطوط المواصلات ، وأن السلطات تتوقع أن يجتاح المدينة فيضان مدمر . عدة طائرات عامودية تربض في حالة إستعداد بمطار وادي سيدنا العسكري ، لتنقل المؤن والادوية .

قبع السكان في بيوتهم . تسمع فقط إرتطام المطر العنيف بالأرض ، جريان الماء المندفع في الجداول الضيقة ، متجها إلى النهر القريب . مصطخبا ، عكراً . رعد يزمجر ، برق يعربد ، بكاء الاطفال ، إرتطام البيوت والجدران بالأرض . إستمر هطول الأمطار لأكثر من ساعتين تقريبا . كأن السماء تستجمع قواها . تلتقط أنفاسها . بدأت تهطل من جديد بقوة وإندفاع أكثر . بوابات سدود السماء المائية إنفتحت حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي ، محظوظ من لم ينهار جزء من منزله في ذلك اليوم . تناثرت وسط الماء جثث الحيوانات والطيور الغرقى ، خرج بعض الرجال وهم يغوصون في الماء حتى وسطهم :

بعد صلاة الصبح ، ظل إمام الجامع شيخ عبد القادر جالساً لساعات طويلة على (فروته) يسبح ، ويطلب من الله أن يكون لطيفا بعباده ، وأن يجنب المدينة كارثة ، فعل مثله رجال المدينة الأتقياء لم يفارقوا أماكن الصلاة . يسبحون لله ويبتهلون . النساء تكورن في أسرتهن وهن يحتضن أطفالهن . كانت السماء أحيانا تدمدم ، تزمجر .

ينتفض البرق لكن المدينة المنهكة ، لم تكن تستطيع أن تحتمل أى هطول أمطار جديدة بل حتى قطرة ماء .

كان مرض عبدالخير يشغل بالى ، سألت أمى سؤالا عارضاً : أهله ماحاولوا يعالجوا

(١) جن جنس ده مابتعالج ، ماخلو فقير ماودوهو ليه ، مالاحظت فى جبهته فى أثر كى بتاع نار

إرتشفت فنجان قهوة (بكرى) ساخن ، إفطار دسم بلحم الضان المسلوق . وكنا وحدنا فى المنزل . هربت بأفكارى عن حكاية أمى عن (المطرة أم بروق) إنشغلت هى باصلاح وضع النار فى الموقد (بالماشه) تذكرت عبدالخير فى صباه . كان يجب أن يكون حتى الآن قويا (يهد الجبال) كانت قوته الاسطورية مضرب الامثال ، كان يضع (نواة البلح) بين أصبعيه فيكسرها . يضغط على الريال الفضى الذى يحمل صورة (الملك جورج) فيحطمه . اللصوص يخشون زيارة حينا (المرابيع) بالنسبة لهم هى الجحيم ، عبدالخير يجرى مثل الحصان . ويرى مثل القط فى الليل إذا وقع أى واحد منهم بين يديه . فان ضربة واحدة منه تجعله لايفيق إلا فى قسم الشرطة . رغم كل ذلك كان طيب القلب خدوماً . كنا نعجب به . نقلد مشيته الرجولية . الجسورة الآن يمشى بصعوبة بالغة . إنحنى ظهره عظامه بانت فى مكان عضلاته المفتولة . صوته الجهورى الرنان ، أصبح مثل صوت الرجال المسنين ، رغم أنه فى حوالى الأربعين من عمره الآن . إنتشلنى صوت أمى من الماضى البعيد .

كان عبد الخير (العجلاتى) أحد الذين حجزتهم الأمطار فى السوق المقفر شبه المهجور ، إلا من عدد قليل من التجار . يراقبون كل شىء بعيون قلقة . محل عبدالخير لتأجير وإصلاح الدراجات ، يقع فى الجزء الغربى من السوق . شيدت متاجره على ربوة رملية ،

هى جزء من التلال الرملية التى تمتد غرب المدينة . عندما توقف المطر للحظات . حيث إلتقطت السماء أنفاسها وبدأ البرق يغمز بعينيه من جديد . خرج عبدالخير من متجره ، تقدم عدة أمتار نحو الشارع الرملى غير المعبد ، يمشى كمن تقود خطاه قوة سحرية ، شق صدر السماء برق خاطف . وقـف عبدالخير شـامخا ببصره الى أعـلى . هز أركان المدينة رعد . عاد المطر يهطل من جديد . لا أحد يتجرأ ويحاول إعادة عبدالخير الى متجره . خلع قميصه المصنوع من (الكاكى). وقف عارى الصدر ينظر الى السماء . جيرانه من التجار تجمعوا أمام متجره . ينادونه فى إستجداء جزعين .

: عبدالخير ، ده شنو البتعمل فيه ده .

() عبدالخير وحياة أبوك أرجـع . مافى داعى بتمرض . خيل لهم انها احدى محـاولاته للإستعراض بقوته الأسطورية . حكاية تحدى جديدة لقوى الطبيعة هذه المرة . من غيره يستطيع أن يقف فى مواجهة البرق ؟ ، الرعد الرهيب ، سُم مواجهة الرجال . هطل المطر حتى كاد أن يحجبه عن الرؤية ، وهو شاخص ببصره إلى السماء . ضاعت أصواتهم وسط صوت المطر . عندما يضىء البرق يبدو مثل كتلة أبنوسة كبيرة مغروزة فى الأرض . كلما برق البرق . وارتعدت السماء .

وزمجرت . يناديها بصوته الجهورى .

: أضرب . أيوه .... هنا ، أضرب .

مشيرا بكفه العريضة إلى صدره العارى .

يشق صدر السماء برق جديد . يضىء المدينة المبتلة .

يزمجر الرعد . يضرب عبدالخير صدره بقبضة يده بصورة متصلة مرددا بصوته الجهورى .

: أضرب هنا .... أضرب .... أيوه ... هنا

كمان .... تاني . أيوه أضرب هنا .... أيوه .

إستمر واقفا لفترة طويلة . يخاطب البرق . يطلب من الرعد أن يوجه ضرباته لصدره الأبنوسي العريض . سقط مغمى عليه . رغم هطول المطر . إندفع شخصان وسط شلال المياه . صعب عليهما حمله . جراه من يديه على الأرض حتى باب المتجر . حفر جسده العملاق أخدودا طويلا على الأرض الرملية . سرعان ماتجمعت فيه المياه . بدأ شكله غريبا . عيونه جاحظة ، بارزة ، متحجرة ، بلون الدم صدره المبتل يعلو ويهبط كمن كان يعدو لمسافة طويلة . البرق يومض . يضيء المدينة مثل سراج أبدي . الرعد يزمجر . كوستي تبللت . أصبحت قطعة ضخمة من الطين . الماء . الرعد يزمجر . يهز جدران المنازل الصامدة .

ماشاء الله كان

تقدم العمر كثيرا بالعازة بنت عبدالحليم . إستيقظت من النوم في يوم كان مزاجها فيه معتدلا ، إستيقظت قبل الاخرين ، ظلت تصلى وتصلى حتى أشرقت الشمس . حلمت برجل طويل له لحية بيضاء ، يلبس ملابس بيضاء ، وكما تحكى .

وقف فى خشم الباب ده لامن غطاه ، وقال لى العازة بت عبدالحليم ، قلت ليه هوى يابه ، قالوا إنتى السنة دى ماناوية الحج ، قلت ليه هو فى زول بيابا يزور بيت الله ، لكن معلمه الله ، قال لى ، الله كريم ، بس إنتى يكون عندك النية .

إنتابتها حالة إكتئاب فى ذلك اليوم ، فقد ناداها المنادى للحج هذا العام ، وهى فقيرة لم تدخر لهذه المناسبة . رددته كما تردد أغنية محبوبة أحاطت بها ، النساء محتارات ، قال الرجال بأسى (لمن إستطاع إليه سبيلا) وإلا لأجتمعوا فى ساحة الجامع كعادتهم وجمعوا لها تكاليف الحج ، ولكن إبنها أثبت أنه (ود أبوه عشره) دق صدره وباع خمس بقرات . وكان أن «فصلت» العازة بت الحليم جلابية بوباين بأكمام طويلة ، إشترت طرحة طويلة بيضاء ، أصرت أن تذهب مع إبن خالتها لإصلاح أسنانها فى الخرطوم .

برى ، بيت الله مابمشى ليه بخشمى المهردم ده .

سافرت مع الحجاج . بعد أن جلست مع الإمام أكثر من مرة شرح لها فيها مناسك الحج ، التى لم تقلقها ، بقدر ما أقلقها هذا القدر من النقود الذى تحمله معها ، فبجانب مصاريفها الخاصة ، تحمل أكثر من مائتى جنيه (وصايا الناس) هذه تريد ستاير نايلون . هذا يريد صنادل حجازية ، ثياب . عمه توتال إنجليزى . لبان لادن ، أساور

ملابس أطفال . ثياب نسائية . كلفت العازة بت عبدالحليم بشراء متجر كامل تقريبا . وبما أن العازة بت عبدالحليم لاتعرف القراءة والكتابة ، فقد حفظت وصايا الناس عن ظهر قلب . كانت تتذكرها جيدا فى السودان ، ولكن بعد أن قطعت ذلك البحر العريض «بالوابور» نسيت كل شىء وسط زحمة أداء مناسك الحج وأرهاقه الكثير ، ولم تشأ أن ترجع للسودان حاملة معها المال الكثير ، والفقراء والشحاذون يمدون الأيادى فى كل مكان ، كما أن هذه مناسبة عظيمة ، الأجر فيها مضاعف ، إشترت أشياء بسيطة ، ووزعت كل ماتحمل من المال على الفقراء والمساكين . إبتداءا من المدينة حتى مكة ، كانت قد وزعت بسخاء كل مامعها من مال .

إستقبلها إمام الجامع فى الخرطوم . المشوار من الخرطوم حتى ضواحى الكاملين طويل يتسع لقصة الحج كاملة من البداية حتى النهاية ، كان يعقب على كلامها قائلا ..

— ماشاء الله كان ياحاجة ، ماشاء الله كان ياحاجة .

توقفت قليلا عن الحديث . لم يشأ أن يسألها عن (الجزمة الكشف) . وعمة الكرب ، قماش جلابية التترون . والثوب المضغوط لزوجته . التى أوصاها عليها وأعطاها ثمنها ، لكن قلبه غاص فى بطنه عندما بدأت تحكى من جديد ..

غايتو إنت جبت ليك سبحة ومصحف ومصلاية ، إنت فضلك على ما كتير .

ورفعت يديها بالفاتحة ..

أنا مادام الله سهل لى وحججنى ، الناس هينين ، والسويتو ليهم يا حاج مابروح ساكت ، أجر كتير ذى ده أضيعه ليهم ، مادام هم ماحجوا ، أخير أسوى الخير بى حقهم والأجر يرجع ليهم ولاشنو يا الإمام .

ـــ ماشاء الله تبارك الله يا حاجة ماشاء الله كان ، حجة مبروكة إن شاء الله

() الناس ادونى قروش كتار ياحاج ، تقول قريب الميتين جنيه ، لكن إنت قايل أنا مانسيت الدايرنو الناس كله ، إنت قايل الميتين جنيه ديل كفوا مساكين مكة والمدينة .

ـــ ماشاء الله كان ياحاجه ، ماشاء الله كان ، ياحاجة تبارك الله . .

() الدنيا ماملحوقة ياأولانا ، والحجاج ماكتار تانى ماشين ، خليهم يدّوهم يجيبوا ليهم الدايرنو ، لكن قروشهم الأدونى ليها الله كاتب ليها تتوزع على المساكين ، وتبقى ليهم أجر فى الآخرة ، غايتو جبت لى بت عبد الوهاب طرحه ، ولى حاج حسين شبشب ولى العاجبة توب ساكوبيس وجبت لى بخور وسبح وطواقى ولبان وبهارات ، قلت أوزعها على الناس .

عندما تذكر الإمام العمة الكرب ، الجلابية التترون وثوب زوجته المضغوط ، الجزمة الكشف والخمسة عشر جنيها التى أعطاها لها شعر بغصة فى حلقه منعته الكلام ، رفع يديه بالفاتحة أخيرا قائلا :

ـــ المهم إنك انتى مشيتى وجيتى بالسلامة ياحاجة .

ظل صامتا طوال ماتبقى من الطريق . مستمعاً لها وهى تحكى .

الساحر لايموت مرتين

قبل أن يغادر القاهرة عائدا إلى السودان ، ذهب إلى إحدى مطابعها الرخيصة . على ورق باهت طبع ملصقات تحمل صورته ، من كتفه الأيمن حتى وسطه من جهة اليسار ، يمتد شريط طويل من جلد النمر ، يشد وسطه بحزام حديدى عريض . يضع على رأسه غطاء أحمر اللون ، تحت الصورة . كتبت الجمل الآتية :

(الساحر السودانى الكبير ، الذى دوخ سحره الهند ، يعود الى بلاده الحبيبة ، ليقدم عروضه وألعابه التى لم يسبقه عليها أحد . رجل مهنته تحدى الموت . يلوى الحديد ، يأكل النار) تعالوا وشاهدوا علوبة ، ملك سحرة العالم .

كان (على) قد ذهب إلى القاهرة إلى الدراسة أيام عبد الناصر تنقل فى مختلف جامعاتها ومعاهدها وعندما يفشل فى الدراسة فى إحدى الكليات ينتقل إلى أخرى بعد أكثر من عشر سنوات إنقطعت أخباره ، سافرت أمه إلى القاهرة تبحث عنه ، سمعت أنه تزوج مصرية ، عادت أدراجها بعد أن أقنعها أنه أنهى دراسته الجامعية وأنه سينهى دراسته العليا العام القادم . . .

تقول للنساء الشامتات عندما يسألنها عنه :ـ

: ولدى بعد كل قرايتو دى مابشتغل إلا مدير فى الحكومة . .

قضى عدة سنوات أخرى دون أن يحقق أى نجاح أكاديمى يذكر إقترب عمره من الأربعين مرة صادف أحد الحواة الذين يقدمون عروضهم وألعابهم فى أحياء القاهرة الشعبية إستهوته المهنة ، تتفق مع طبيعتـه وشخصيته . . المَخْرَج المناسب من وضعه الحرج ، دخلها طيب . علمه أسرار المهنة ، زامله فى جولاته فى أحياء القاهرة وفى الريف المصرى أحيانا . . .

سافر إلى السودان بطريق الباخرة . بصحبه معزة وقرد ، وصندوق كبير من الخشب الملون يحتوى على (عدة) الشغل . فى الباخرة النيلية ، بين أسوان وحلفا القديمة ، نصحه سودانى عجوز أن لايقدم عروضه الأولى فى مدينة وادى حلفا معقل النوبيين ، ليتجه لعطبرة ، أوليذهب إلى الخرطوم سأل بتحد :—

: ليه السبب شنو .

صارحه الرجل ، قال وهو ينظف أسنانه بعود كبريت

: الحلفاويين يا ولدى ناس داهية سافروا كثير وشافوا الدنيا وعندهم حب الإستطلاع

وعد الرجل أن يعمل بنصيحته . مسافة الطريق ثلاث ليال . قدم عروضه فى الباخرة . وهى تقترب من ميناء مدينة حلفا ، طلب منه بعض النوبيين أن يقدم عروضه فى المدينة . بل وعرضوا مبلغا كبيراً من المال . يسيل له اللعاب

سيتولون هم تنظيم كل شيء ، قالوا له :—

: ده أنت أحسن حاوى فى الدنيا ، ناس البلد لازم يشوفوك .

كانت عروضه بالفعل مدهشة . مثيرة ، شىء جديد على حياة المدينة تماما . يخرج البيض من أنوف الأطفال . يؤدى القرد حركات ضاحكة يقلد فيها البشر .

ترقص المعزة على دقات الطبول . يخلص نفسه من السلاسل التى يلفها حول جسده رجال أقوياء . تقاطر الناس من كل القرى لمشاهدته . حتى سكان الجزر . السرادق الذى يقدم فيه عروضه ، تحول إلى سوق صغير لكل شىء يديره النوبيون الذين نظموا الحفل . كان لايبعد عن سوق مدينة حلفا كثيرا .

كانت هنالك (نمرة) خطرة . عندما يقدمها تضاف (تعريفة) لثمن التذكرة . ينام على ظهره فى حفرة كبيرة كالقبر تماما . مربعا

يديه على صدره . يهيل عليه المتفرجون التراب بعد خمس دقائق بالضبط يقومون بإزالة التراب بسرعة . يخرج حيا معافى مبتسما . ينفض التراب العالق بجسمه . يحرك عضلات يديه وصدره . يدور حول القبر هازئا . منتصرا ، كأنه بعث من جديد .

اليوم يقدم آخر عروضه ويسافر إلى عطبرة . عرض خاص فى نادى الموظفين ويحضره وجهاء البلد وفى مقدمتهم (المحافظ) . أمتع المشاهدين بعروضه . حان موعد تقديم (النمرة) التى يدفن فيها حياً . صمت الناس كأن على رؤوسهم الطير . لعدة ثوان . ظل يحوم حول القبر . يحرك عضلات صدره فى تناغم وتوافق . كان طويلا . صحيح البدن من غير ترهل . غشيت الحاضرين رهبة . تمتم ببعض الأدعية بلغة غريبة . غشيته حالة أشبه بالغيبوبة . قبل أن يخطو ليرقد فى القبر . حدث مالم يكن فى الحسبان . ظهر وسط المشاهدين فى الصف الاول عبدالغفور ، وهو نوبى عجوز لاتفارق سيجارة (القمامشة) شفتيه . قضى عمره كله بحاراً يجوب العالم على ظهر السفن . يجيد أكثر من لغة . بسبب آلام الظهر . عاد وأستقر فى حلفا . رجل (نكته) هوايته السخرية من الناس . يتسم حديثه بالصراحة الشديدة . تسيطر عليه روح الصدام والتحدى .

عندما رأى الحاوى يلف ويدور حول القبر . عضلات صدره ترقص ، عيناه جاحظتان . ينظر إلى الأرض المحفورة باسطا ذراعيه . قال بإندهاش حقيقى . موجها حديثه للجمهور .

: الله ، حكاية غريبة ، هو الجدع ده مالوا بيعمل كده

ضحك ضحكة عالية رنانة ، إنتقلت عدواها لكل السرادق فى ساحة نادى الموظفين . أحد الواقفين بالقرب منه شرح له الأمر فى إيجاز . رد عبدالغفور معلقا :ـ

يديه على صدره. يهيل عليه المتفرجون التراب بعد خمس دقائق بالضبط يقومون بإزالة التراب بسرعة. يخرج حيا معافى مبتسما. ينفض التراب العالق بجسمه. يحرك عضلات يديه وصدره. يدور حول القبر هازئا. منتصرا، كأنه بعث من جديد.

اليوم يقدم آخر عروضه ويسافر إلى عطبرة. عرض خاص في نادى الموظفين ويحضره وجهاء البلد وفي مقدمتهم (المحافظ). أمتع المشاهدين بعروضه. حان موعد تقديم (النمرة) التي يدفن فيها حياً. صمت الناس كأن على رؤوسهم الطير. لعدة ثوان. ظل يحوم حول القبر. يحرك عضلات صدره في تناغم وتوافق. كان طويلا. صحيح البدن من غير ترهل. غشيت الحاضرين رهبة. تمتم ببعض الأدعية بلغة غريبة. غشيته حالة أشبه بالغيبوبة. قبل أن يخطو ليرقد في القبر. حدث مالم يكن في الحسبان. ظهر وسط المشاهدين في الصف الاول عبدالغفور، وهو نوبى عجوز لاتفارق سيجارة (القنامشة) شفتيه. قضى عمره كله بحاراً يجوب العالم على ظهر السفن. يجيد أكثر من لغة. بسبب آلام الظهر. عاد واستقر في حلفا. رجل (نكته) هوايته السخرية من الناس. يتسم حديثه بالصراحة الشديدة. تسيطر عليه روح الصدام والتحدى.

عندما رأى الحاوى يلف ويدور حول القبر. عضلات صدره ترقص، عيناه جاحظتان. ينظر إلى الأرض المحفورة باسطا ذراعيه. قال بإندهاش حقيقي. موجها حديثه للجمهور.

: الله، حكاية غريبة، هو الجدع ده مالوا بيعمل كده

ضحك ضحكة عالية رنانة، إنتقلت عدواها لكل السرادق في ساحة نادى الموظفين. أحد الواقفين بالقرب منه شرح له الأمر في إيجاز. رد عبدالغفور معلقا :ــ